مطبوعات مكتبة مصر

شيء من الخوف

تأليف

ثروت أباظة

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

(١)

خالجه نفس الشعور الذى يخالجه كلما ركب القطار فى طريقه إلى القاهرة . كان يتحرى دائمًا أن يتخذ مكانه بجوار النافذة لا يرفع نظره عن الحقول المنبسطة المترامية الأطراف لا يحد الحقل إلا حقل مثله ، وإن تباينت أنواع المزروعات واختلفت .

وكان يشعر دائمًا أن هذه الأرض جميعها ملكه ، وأنه نبتة منها ، ولكن نبتة خالدة باقية لا تحصد ولا يعاد زرعها ، وإنما هى نبتت منذ ملايين السنين ثم بقيت . كان يخيل إليه أنه يعرف أغوار هذه الأرض وأنه كان فى يوم ما فى داخلها تحنو عليه أعماقها وتدفئه حناياها ويمده بالسقيا ماؤها . حتى إذا انفجر إلى السطح كان هواء هذه التربة هو الذى يمده بالحياة . لم يكن هذا الشعور يخالجه وهو فى قريته . فهى أضيق من أن تتسع لهذه الفكرة وإنما كان يحس بها دائما إذا ما انفسح أمامه الوادى وانطلقت عينه إلى ما لا نهاية من الأرض . حينئذ كانت هذه المشاعر تثب إلى نفسه خفيفة فى أنحاء شتى من كيانه فلا يدرى مأتاها .

وكان يخيل إليه أنه فلاح من هؤلاء الفلاحين الذين يعملون فى الأرض ، ثم ما تلبث هذه الفكرة أن تنداح فى وعيه ، فإذا هو يحس أنه هو جميع هؤلاء الفلاحين . فهو الذى يدرس القمح وهو الذى يحصده ، وهو هو نفسه الذى يذروه . أو هو الذى يجمع القطن وهو الذى يسير خلف الأنفار وهم يجمعونه . وهو هو نفسه الذى يفرز القطن وينقيه من شوائبه . وما تلبث أفكاره ومشاعره أن تضرب به فى أغوار الزمن فيحس أنه هو نفسه الذى زرع هذه الأرض منذ بدأت هذه الأرض تعرف نفسها كمنتجة للزرع ، وحين لم تكن هذه الأرض شيئًا إلا أن تحمل الإنسان . كان يخيل إليه أنه هو

أول إنسان حملته لم تحمل قبله أحدًا . كان يخيل إليه أنه هو أول من قدم إلى هذه الأرض من البشر فهى لم تعرف قبله أحدًا ، ولا عرف هو قبلها أرضًا .

فهو يرى نفسه حينًا واقفًا فى أرضه هذه .. أرضه جميعًا لا يقصد قطعة معينة منها ، ويرى رمسيس يشيد أمجاده هنا على هذه الأرض ويخيل إليه أنه كان فيما مضى من أزمان جنديًا من جنود رمسيس ، أو هو جندى من جنود سيزستريس ، أو هو ملقى فى الحديد والقيود حول يديه وقدميه فى أزمان قمبيز . ثم هو يحس الحديد يحطم واسم الإسكندر يذيبه عن أقدامه وسواعده . ثم يمضى مع نفسه هذه الهائمة فى ملكوت التاريخ فيرى كليوباترا وقيصر ، ثم يرى أنطونيو . وحين يفرغ التاريخ من القوى الباطشة تتهدى إليه الرسالات من السماء ، فيرى نفسه ساعيًا وراء موسى على هذه الأرض نفسها . ثم يرى نفسه معذبًا بالمسيحية سعيدًا بها فى وقت معًا . ثم ينتهى به الأمر مع عمرو بن العاص مسلمًا مؤمنًا سعيدًا بروحه وعقله وجسمه جميعًا . ثم يطوح به التاريخ فى جذبة قوية رائعة إلى هذا المستقبل القريب حين هو تلميذ فى كتاب القرية ، يجرى بين دهاليز الكتاب الضيقة الصغيرة حافيًا ينتعل التراب فى الفناء الضيق مع زملاء وزميلات . أما الزملاء فهم أصدقاء اليوم ، وأما الزميلات فإنهن زوجته وزوجات أصدقائه .

عجيبة هى الأيام فى تنقلها وئيدة الخطو سريعة العدو . تمشى كما تدور الأرض فلا يحس بها ولكنها تقلب الحياة تقليبًا فتومض الشيب فى الرءوس وتذرو الغضون على الجباه وتنفث التجاريب فى العقول فتحيل السذاجة الناعمة الشفافة حرصًا معتمًا كثيبًا ، فإذا النفس التى كانت مشرقة واضحة المعالم تغدو ملتوية المسالك خبيثة .. ولا جناح عليها ولا تثريب فإنها تواجه زمانًا كثير المسالك الملتوية خبيثًا يصيب من حيث يأمن صاحبه . أين

الأيام الخوالى ؟ . أين أيام كنت فيها طفلا لاهيًا ؟ ماالذى جعلنى أذهب إلى الكتاب . لا . ليس أبى .. إنه أنا .. لماذا ؟ .. لست أدرى .. كنت ألعب فى الساحة التى تنفسح أمام الجامع .. تلك التى مازالت على حالها فى الدهاشنة لم يغيرها الزمن .. لماذا لا يغير الزمان الأرض ؟ .. كنت ألعب هناك بالكرة .. أى أنا كنت إذ ذاك .. أترانى كنت ذلك الأنا الذى صاحب رمسيس أم كليوباترا أم قمبيز أم موسى أم عيسى أم محمدًا . أى أنا فى هؤلاء كنت .. كنت ذلك الأخير .. كنت بجسمى هذا الباقى الذى لم يتغير .. وهل تغيرت الأجسام بين كل هذه الأزمان .. لا أدرى ..

كل الذى أدريه أننى كنت أنا بذراعى هذه ورجلى هذه وكانت صغيرة إذ ذاك ، كنت ألعب مع فايز بك .. نعم كان بك منذ ذلك الحين البعيد .. أنا لم أعرفه طوال حياتى إلا فايز بك . يبدو أن البكوية ولدت معه يوم مولده بل لحظة مولده ، ولعل القابلة أخرجتها من بطن أمه قبل أن تخرجه هو .. إنه بك منذ ذلك الحين ، منذ نحن أطفال نلهو لم نمثل للتعليم بعد . كنت أنا وهو فقط وكنا فى انتظار أن يأتى عبد الصادق ولكنه تأخر عنا ولم نكن نعلم فيم تأخره ؟ وكنا نريد أن نلعب الكرة وما كان لنا أن نلعبها دونه . ورأينا الناس يقبلون على الجامع فرادى وجماعات وكنا نعرف أنهم يدخلون إلى الجامع ليصلوا .. ولكن كيف كانوا يصلون ؟ لم نكن ندرى لا أنا ولا فايز بك ، ونظرنا إلى الناس وهم يتقاطرون على الجامع ويخلعون نعالهم ، وقليل هم الذين كانوا يخلعون أحذيتهم . ونظرت إلى فايز بك ونظر إلىّ ولم نتكلم ، وإنما قصدنا إلى باب الجامع فخلع هو حذاءه ولم أخلع أنا شيئًا وخطونا العتبة ، فإذا نحن فى الجامع .

ووجدنا قومًا يميلون إلى اليمين ليدلفوا من باب . فملنا معهم ورأيناهم يغسلون وجوههم وأيديهم ورءوسهم وأرجلهم من بئر هناك فرحنا نفعل

مثلما يفعلون ، ثم غادروا إلى حرم الجامع مرة أخرى فتبعناهم ، وما هى إلا دقائق حتى تقدم الشيخ جابر عبد التواب رحمه اللّه .. لقد خلفه اليوم ابنه الشيخ عبد التواب جابر . أصبح اليوم مأذون القرية وخطيب المسجد فى آن واحد . لا أستطيع أن أنسى النكتة التى أطلقها عليه الولد عتريس ابن عبد الصادق .. خيبة اللّه عليه أصبح شريرًا .. ويلى أخاف أن يسمعنى .. يا لى من أحمق ! إننى لا أتكلم إنى أفكر .. أأخاف منه حتى وأنا أفكر .. لم أثار الرعب فى القرية عتريس عبد الصادق ، ولكنه كان مع ذلك طفلا وكان يقول النكت فى بعض الأحيان وكان يضحك . أتراه يضحك الآن .. أتراه حين يقتل يضحك .. كان وهو طفل كثير الضحك .. كان يشاهد الشيخ عبد التواب جالسًا دائمًا فى دكان عبد الملاك البقال .. ياله من خبيث ذهب إلى عبد الملاك وقال : أعطنى بقرش زيتونًا وبقرش جبنة وبقرش حلاوة ، وقام الشيخ عبد التواب وراءه : امش يا قبيح . واللّه لسوف أقول لأبيك وأجعله يضربك بالمركوب . وجرى عتريس يضحك هالعًا . واليوم أرى الشيخ عبد التواب يصيبه الهلع كلما ذكر أمامه عتريس .. أيام تتقلب ..

لم يكن الشيخ عبد التواب هو الإمام يوم دخلنا أنا وفايز بك وإنما كان أبوه الشيخ جابر . وأم الصلاة ورتل القرآن فى صوت جميل أخاذ ﴿ والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيمًا فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ اللّه أكبر .

وفى الصباح التالى كنت أنا لم أنم بل ظللت أترقب الفجر حتى بزغ ، وإذا أنا أجد نفسى فى كتاب الشيخ عبد الكريم التهامى ، وإذا فايز بك

يرسل إلى الشيخ عبد الكريم فى اليوم نفسه أن يذهب إليه فى السراى ليحفظ القرآن على يديه .

مرت بى فى الكتاب أعوام قلائل ، فإذا أنا العريف . ويوم توليت منصبى هذا قدمت فاطمة إلى الكتاب . ما كان أجملها يوم ذاك .. طفلة وضيئة الطلعة مشرقة العينين بهيجة النفس ، أنا لا أراها حتى اليوم إلا كما كانت حينذاك .. جلباب أخضر زاه ووجه أبيض ناصع فيه ضياء ينبعث منه عينان فيهما صفاء كصفاء العسل الأبيض وفى لونه أيضًا . وضفيرتان من الشعر الأسود اللامع من غير زيت .

وكنت العريف . فكانت تقرأ على .. وكنت أصحبها بعد أن ينتهى الكتاب . وكانت تقرأ وكنت أمسك أنا لها اللوح . لا أنسى يوم غرقت حين كنا نمشى بجانب النهر . كانت هى بجانب النهر وكنت أنا بجانبها وزلقت قدمها فإذا هى جميعًا فى النهر . ولم أكن أعرف العوم . لماذا لم أكن أعرف العوم ؟ .. لا أدرى وإنما لم أتردد .. ألم أكن أخاف يومذاك فما لى اليوم أخاف من عتريس .. كانت نفسى على سجيتها ولم أكن أقدر حياتى قدرها ، ولم تكن لى فؤادة أخاف عليها أن أموت فلا تجد لها أبًا .. أترانى كنت شجاعًا ثم صرت جبانًا .. أم ترانى كنت جبانًا ولكنى لم أفكر .. وكيف أكون جبانًا ولا أفكر وهل الجبن إلا تفكير .. رميت بنفسى فى النهر وأنا لا أعوم وفى لحظة خاطفة امتدت يدى إلى الصفصافة التى تحنو على النهر .. لكم أحب هذه الصفصافة .. تشبثت بشعور الصفصافة المتهدلة إلى مياه النهر ومددت رجلي بأقصى ما تستطيعان أن تمتدا وتشبثت فاطمة بقدمى ورحت أشد جسمى إلى الأرض شيئًا فشيئا وفى بطء شديد وفى حرص أشد أن تفلت يدى شعور الصفصافة أو تفلت فاطمة قدمى حتى بلغت الأرض . ومددت يدى إلى فاطمة وخرجت إلى الأرض

واستلقيت عليها .. كم هـي حبيبـة هـذه الأرض . ومـرت أعـوام الكتـاب . وختمت حفظى للقرآن وخرجت إلى الحياة .

ظل فارغًا فترة طويلة بعد أن ترك الكتاب . كان يحن إلى فاطمة . ولكن كيف له أن يذهب إليها . ولم يكن الحنين وحده كافيًا أن يشغل وقته . وفى يوم عزم على أمر . فما لاح الفجر من اليوم التـالى حتـى خـرج إلى غيـط أبيـه وبـدلا مـن أن يشـرف علـى الرجـال وهـم يفلحـون الأرض ربـت كتـف عبد الجليل أبو سعفان :

ـ عبد الجليل .

ـ أفندم ياسى حافظ .

ـ هل عندك فأس أخرى ؟

ـ لماذا ؟

ـ هل عندك فأس أخرى ؟

ـ نعم .

ـ اذهب فهاتها .

ـ وهذه مالها ؟

ـ سأستأجرها منك .

ـ أنت ؟

ـ نعم .

ـ تفلح الأرض معنا .. أنت ياسى حافظ يا ابن الحاج خالد ، أنت ؟! .

ـ أعطنى فأسك ولا تطل .

وقالوا مجنون ، ولكن ما شأنه هو أن يقولوا ؟ واستمر عامًا وبعـض عـام حتى جاء فـايز إلى القريـة ، فذهـب إليـه وتحادثـا .. رأى فـى حديثـه نـورًا

جديدًا يريد أن يروده .. كان لابد له أن يعلم علم فايز . لقد ذهب فايز إلى المدرسة فى المدينة فما له هو لا يذهب .

ــ آبا . أريد أن أذهب إلى المدرسة .

ــ قل ماذا تريد من مال ومع السلامة .

ــ غدًا أذهب .

ــ غدًا تذهب .

وكان هذا هو فراقه عن الفأس . ولكنه إن فارق القرية فسيفارق فاطمة أيضًا .. كيف يستطيع أن يفارقها . لم يكن يراها إلا قليلا ، ولكن أنفاسها فى القرية ، فهو يعيش فى أجوائها . فكيف يفارق القرية . ولكن لابد له أن يعلم علم فايز . فكيف على الأقل يبلغ فاطمة أنه مسافر فى غده آخذًا طريقه إلى المدينة وإلى العلم ؟

ذهب إلى عبد الصادق فى بيته .

ــ عبد الصادق .

ــ ماذا ؟

ــ أريد أن تأتى معى لنتمشى .

ــ عند الصفصافة طبعًا .

ــ هل عندك مانع ؟

ــ مللت الصفصافة .. تعال نذهب إلى الناحية الأخرى من القرية هناك عند النخيل .

ــ إلا اليوم .

ــ ولماذا اليوم .

وتردد قليلا ثم قال :

ـ لا أدرى إلا أننى أريد أن أذهب إلى الصفصافة .. لا أدرى . ألا تحس فى أحيان معينة أنك مشتاق إلى مكان معين .. أنا الآن مشتاق إلى الصفصافة .

ـ أمرك نذهب إلى الصفصافة .. نذهب إلى الصفصافة . .

ـ يقطع الـ ..

وقبل أن يكمل الكلمة كان حافظ قد وضع يده على فمه فى خوف :

ـ اسكت .. وهيا .. ولا تطل الكلام .

وجلسا عند الصفصافة . وظل حافظ صامتًا ، ولكن عبد الصادق لم يسكت ...

ـ لقد أردت أن أجىء معك لأخبرك خبرًا يفرحك .

وقال حافظ وعينه إلى طريق القرية وذهنه إلى بيت فى القرية لا يريم عنه .

ـ هه ؟

ـ لا .. اصح واسمع كلامى وأحسن سمعه .. وإلا قمت والله وتركتك وحدك أنت والصفصافة .

وانتفض حافظ فى ذعر .. فإنه يحتمل كل شىء إلا أن يقوم عنه عبد الصادق الآن فقد كان يريده بكل خلجة من مشاعره ، وبكل دقة من قلبه .

ـ لا .. تقوم ؟ .. وهل هذا يصح .. أنا أسمعك .. أسمعك تمامًا .

ـ ألا تعرف أنى فكرت فى الزواج .

وانتبه حافظ إلى صديقه تمامًا .

ـ ماذا ؟

ـ نويت أن أتزوج نبوية .

ـ نبوية بنت حسنين العكر ؟

- هى نعم بنت حسنين العكر .

- وأبوها .

- ماله أبوها ؟

- مجرم !

- تخافه الجهة كلها .

- ولكنه مجرم !

- إنه رجل .. ليس مثله بين الرجال .

- إنه مجرم .

- اذكر لى اسما واحدًا لا يخاف حسنين العكر .. حتى فريد باشا يخافه .

- الإجرام ليس رجولة .

- فما الرجولة ؟

- ألا تخاف أن يصبح أولادك مجرمين .

- ياليت !!

- ستندم .

- لا تخف .. فليكونوا هم كجدهم ولا شأن لك . إننى حينئذ سأكون أسعد أب فى الدنيا .

- وإذا أغضبت نبوية . ألا تخاف أباها ؟

- ولماذا أغضبها ؟

- بين الزوج والزوجة لا يخلو الأمر من الغضب .

- لن أغضبها .

- أخاف عليك من هذا الزواج !

- يا أخى لا تخف .. قل لى مبروك .

وقبل أن يقول حافظ شيئًا رأى فى أفق الطريق القريب جمعًا من الفتيات يقترب إليه هو وصديقه ، فظل نظره متعلقًا بالطريق فى حين راح عبد الصادق يهزه .

ـ مالك .. مالك ساكتًا .. ألا تقول لى مبروك ؟

ـ هه .. آه .. نعم .. صحيح .. مبروك .

وران الصمت بين الصاحبين حتى اقترب سرب الفتيات ، وكانت فاطمة بينهن . أقبلن إلى الترعة يملأن منها الجرار . وكانت الجماعة قريبة من حيث جلس الصديقان وصاح حافظ ؟

ـ ألم تعرف يا عبد الصادق ؟

ـ مالك تصيح هكذا .. أرأيتنى قد فقدت السمع ؟

ـ أنا مسافر غدًا إلى المدينة وسأبقى هناك .

ـ عجيبة .

ـ سأذهب لأتعلم فى المدرسة .

ـ ولماذا لم تقل لى هذا الخبر المهم من ساعة أن رأيتك ؟ وعلى كل حال لماذا تصيح ؟

ـ لن أنساك أبدًا يا عبد الصادق .

ـ لن تنسانى .

ـ لابد أن تأتى إلى هذه الصفصافة دائمًا يا عبد الصادق .

ـ أنا ! حد اللّه بينى وبين الصفصافة .

ـ إياك أن تترك يومًا دون أن تأتى إلى الصفصافة .. أنت تعرف كم هى غالية عندى يا عبد الصادق .

ـ وأنا مالى !

ورأى حافظ إجابة كلامه فى عينى فاطمة وفى ابتسامتها .. فراح يصيح .

ـ أحبك .

صرخ عبد الصادق :

ـ ماذا ؟

ـ أحبك يا عبد الصادق .

ـ أحبتك العافية ..

ـ أنت حبيب العمر يا .. عبد الصادق .

ـ حفظت .. واللّه أخ .. أخ واللّه ياسى حافظ .

ـ أريد أن أقبلك يا عبد الصادق .

واحمر وجه فاطمة وقال عبد الصادق :

ـ اللّه يبقيك .. ولكن يعنى .. لماذا ؟

ـ لأنك ستتزوج .. ادع لى أنا أيضًا أن أتزوج يا عبد الصادق .. تعال أقبلك .

ـ إنك منذ لحظة لم تكن تريد أن تقول لى مبروك .. مبروك لم أنلها منك إلا بطلوع الروح ، والآن تريد أن تقبلنى ؟ .. ربنا يجعل العواقب سليمة .

وكانت فاطمة قد ملأت الجرة بعد أن نظفتها مرات كثيرة حتى ضاقت بها زميلاتها . وأرادت فاطمة أن تنصرف ، فألقت إليه نظرة فيها فهم وفيها ضحكة عميقة فرحانة متألقة . وقال حافظ صائحًا ما يزال :

ـ مع السلامة يا عبد الصادق .

ـ ماذا .. وهل أنا المسافر أو أنت ؟

ـ أقصد أفوتك بالعافية .. ولا تنس أن تزور الصفصافة .

ـ واللّه لن أزورها أبدًا .

ـ كل يوم يا عبد الصادق .. كل يوم .. إياك أن تنسى .

- ولا يوم وحياتك .. إنى أجىء معك لأجل خاطرك فقط . أما أن أجىء وحدى فهذا هو المستحيل .. وعلى كل أنا سأكون مشغولا بالزواج فى الآيام الآتية .. اللّه .. معنى هذا أنك لن تحضر فرحى .. هه ألن تحضر فرحى ؟ .

وكانت فاطمة قد انصرفت وكانت عينا حافظ متعلقتين بالبقية الباقية البادية من خيالها ، وكانت روحه جميعها ترافقها ، وكانت أذناه منصرفتين عن عبد الصادق كل الانصراف .. لم يعد يسمع شيئًا .. لا شىء .. لا شىء أبدًا .

وسافر فى غده شابًا أسمر اللون ، قوى الملامح ، بارز الجبهة ، عميق النظر ، أسود الشعر فاحمه غزير الحاجبين ، رقيق الشفتين ، مفتول الذراعين ، ذا مشية ثابتة متطلعة إلى المستقبل فى تفاؤل وإصرار ، لا هو بالطويل البالغ الطول ولا هو بالقصير الذى تأخذه العين . شابًا فى مطالع الشباب يبدأ تعليمه فى المدارس ، فهو متفتح الذهن بما تعلمه من قرآن ، متفتح القلب بحبه هذا الذى ينتظره فى القرية . قصد إلى المدرسة فى هدوء مطمئن ووجد رفاقه أو الغالبية العظمى من رفاقه فى مثل سنه إن لم يزيدوا فى أعمارهم عليه .. وواصل تعليمه حتى نال شهادة الكفاءة وعاد إلى القرية . وجد فايز بك رفيق ملعبه قد تزوج من قريبة له وأنجبا ابنهما طلعت . ووجد صديقه عبد الصادق قد تزوج من نبوية فولدت له عتريس . فلم يجد بأسا أن يقصد إلى أبيه :

- آبا ، أريد أن أتزوج .

- اخترت أم أختار لك ؟

- فاطمة بنت الحاج قاسم الطيب .

- ونعم ما اخترت يا ابنى .

وتزوجا . ولم يمكث بالقرية ، وإنما اختار أن يعمل موظفًا بالقاهرة . لكم نعما بهذه الأيام التى قضياها بالقاهرة . وفيها أنعم اللّه عليهما

بابنتهما الوحيدة فؤادة ، فتمثلت الحياة جميعها لهما فى هذه الطفلة الصغيرة يهبان لها كل ما يستطيع الأب والأم أن يهبا ، واطمأنت بهما الحياة سنوات .. سنوات قليلة ، ثم فجعه الدهر بموت أبيه . نظر إلى الحياة يومذاك فوجد نفسه يقف وحيدًا فى لقاء الدهر . ترك وظيفته وعاد إلى القرية .

كان فريد باشا قد مات هو أيضًا ، وتولى فايز إدارة أعمال أبيه . ووجد الفلاحين يشكون من فايز ومن سوء معاملته لهم . ولكنه لم يستطع أن يقول قولهم بل كان يسمع من كثير آخرين مديحًا لفايز لا يشوبه نقد ولا تقف به كراهية . وقد ظل حتى يومه هذا لا يدرى إن كان فايز يستحق المديح أم هو يستحق الكراهية .

وعاش حافظ فى القرية سنوات طويلة . وكبر عتريس ، فإذا هو يرث الإجرام عن جده . ويبدأ صيته فى هذا الميدان يعلو ويرتفع . وحينئذ قطع حافظ ما بينه وبين عبد الصادق . ولكن عبد الصادق لم يقبل هذه القطيعة ، فهو يزور حافظ بين الحين والآخر ، وحافظ يستقبله مبالغًا فى الحفاوة والإكرام ، ولكنه مع ذلك لا يرد زيارته . وتكبر فؤادة فهى شابة فى ريق العمر ، أخذت عن أمها إشراقة نفسها وإيمانها المطلق بالله ، وأخذت عن أبيها طيبة نفسه وسماحة مشاعره . ولكن شيئًا غريبًا آخر تسرب فى هوادة وإصرار إلى أخلاقها . لم يكن حافظ يستطيع تعليله . أتراه الكتب التى تصر على قراءتها ما أمكنتها الفرصة ؟ أم تراه ذهابها فى كثير من الأحيان للست تفيدة زوجة فايز بك التى كانت تجد فيها عقلية مثقفة وحديثًا عذبًا لا يشابه حديث الأخريات من بنات القرية . لقد أحبتها تفيدة منذ كانت فؤادة طفلة تلهو مع إبنها طلعت . وحين منعت السن فؤادة أن تلعب مع طلعت أصبحت تزور تفيدة وتجالسها إن لم يكن فى كل يوم من أيام الأسبوع ففى أغلب أيامه .

كانت فؤادة سمراء سمرة ما تكاد تلحظ ، سوداء الشعر غزيرته ، ذات عينين واسعتين نفاذتين تخترقان الحياة فى فهم وذكاء ، وكانت قوية الأسر لا يستطيع من يراها مرة إلا أن يذكرها دائمًا . وكانت أقرب إلى الطول منها إلى القصر ، أقرب إلى النحافة منها إلى السمن . تحب أن تضحك ، ولكن قليلا ما كانت تجد شيئًا يضحكها .

فهى تبقى على ابتسامة حلوة تعلقها بشفتيها الرقيقتين وكأنما هى تتهيأ للضحك عند أول بارقة تلوح بما يستحق الضحك . تسربت إلى أخلاقها من حيث لا يدرى أبوها ولا يدرى أحد ، عناصر من العناد والإصرار ، فهى إن أرادت شيئًا حشدت كل قواها لتناله . لم يكن أبوها كذلك ، هو تعود ألا يريد شيئًا فإن أراد شيئًا ونادرًا ما يريد ، فهمسة خجلة مترددة إن أفادت فبها ونعمت ، وإلا عادت الهمسة تدوى فى داخله ، وينتهى بها الأمر أن تذوب مع الأمنيات المستحيلة التى قد تدور فى النفس ولا تصل إلى اللسان . وأما أمها فملقية أمرها كله على اللّه ، فما يأتى به اللّه خير ، وما يمنعه عنها اللّه فهو شر ، والحياة كما تحيا جميلة لا تريد منها أكثر مما تعطى ، والحمد للّه الواحد الخلاق فيما أعطى وفيما يمنع . من أين تسرب هذا العناد إلى نفس فؤادة . من أين ؟

ومع صوت القطار ظلت كلمة من أين تدوى فى مشاعر حافظ فتهز كيانه جميعًا ، وكان القطار يوشك أن يصل إلى القاهرة فهو يوهن من سيره الحثيث ويهن معه دوى من أين فى نفس حافظ حتى يصمت القطار ، ويفرغ حافظ إلى القاهرة وينزل من القطار أهم ما يفكر فيه أن يشترى بعض الكتب لفؤادة وخمارًا للصلاة طلبته منه فاطمة ..

(٢)

كانت فاطمة قد تعودت منذ تزوجت حافظ أن تصلى ركعتين للّه دائمًا مع كل صلاة فجر أن يفتح اللّه الأبواب أمام زوجها ، وأن يمنع عنه كل مكروه . فإذا سافر حافظ فالركعتان أربع ركعات أن يعود زوجها إليها بالسلامه . فزوجها عندها هو الحياة كل الحياة .

فمنذ ذلك الحين البعيد الذى لقيته فيه بكتاب القرية وهى تحبه . ومازالت تذكر ذلك اليوم حين أصر أبوها أن تتعلم ابنته القرآن وأرادت أمها يومذاك أن تعارضه ، فإذا هو يقول فى هدوء :

ـ ستتعلم القرآن إن شاء اللّه .

وكانت هذه الكلمة وحدها كافية لأن تأخذ طريقها فى صبيحة اليوم التالى إلى كتاب القرية ، كادت تبكى أول الأمر . ولكن ذلك الشاب الأسمر ذا الابتسامة الحنون الطيبة استقبلها فى تشجيع وأخذ منها اللوح وخط لها الدرس الأول فى غير زهو بعمله ولا استكبار . أقبلت وجلة فى صدر النهار ثم متحمسة فى آخره . وأصبح الكتاب وذلك الفتى الأسمر هو كل شىء فى حياتها منذ ذلك الحين إلى سنوات طويلة . ثم انفرد الفتى الأسمر بحياتها . ولكم تستغفر اللّه أنها كانت تفكر فيه دون أن يربطها به رباط شرعى فهى تصلى أن يمحو اللّه عنها هذه الخطيئة ، وهى تبالغ فى الصلاة والاستغفار حين تذكر يوم انزلقت قدمها فوقعت فى النهر ، إنها يومذاك لم تكن تفكر فى كلام اللّه الذى تتلوه ، وإنما كانت تفكر فى هذا الفتى الأسمر الذى كان يمسك لها اللوح .

وكانت تدمع عيناها فى صلاتها وهى تطلب المغفرة . وكانت واثقة كل الثقة أن قدميها لم تنزلقا ، وإنما الملائكة هم الذين شدوا قدمها إلى النهر جزاء وفاقًا لها عن نسيانها جلال كلمات اللّه ، وتفكيرها فى ذلك الفتى

الذى يمسك اللوح . كم هم رحماء هؤلاء الملائكة لم يغرقوها فى ذلك اليوم ، وقد كان فى حقهم أن يغرقوها ، وإنما هيأوا لها هذا الفتى الأسمر لينقذها ويعيدها إلى الحياة .

ومنذ ذلك الحين تعودت فاطمة إذا قرأت القرآن أن تنسى كل شىء إلا القرآن الذى تقرؤه . كما تعودت أن تستغفر اللّه كلما ذكرت حافظ ، وهكذا كان أبوها كثيرًا ما يسمعها تطلق هذه التنهدة العميقة وتعود بعدها فى صوت خاشع متخاضع فيه كثير من الرجاء ، وكثير من الروحانية أستغفر اللّه العظيم من كل ذنب عظيم . وكثيرًا ما كان أبوها يقول ياه يابنتى ! وأى ذنب اقترفته حتى تطلبى الغفران بكل هذا الخشوع ؟ ويبتسم . كان طيبًا أبوها .. يعرف أن ابنته نقية كماء السماء عفيفة كالملائكة فما كان يزيد على ابتسامة يطلقها فى حنان ويعود إلى تسبيحه مرة أخرى خاشعًا هو الآخر مؤمنًا أعمق الإيمان .

ولكنها مع ذلك لا تستطيع أن تنسى ذلك اليوم الذى أشرفت فيه على الغرق - حين غمرها الماء ثم صعدت إلى الهواء فتلقفت أنفاسًا وراحت تمد يديها دون أن تدرى إلى أى شىء تمد هاتين اليدين . ثم غمرها الماء فهى فى هلع وصعدت لتختطف من الهواء بضعة أنفاس أخرى ثم يغمرها الماء . لم تكن تفكر فى هذه اللحظات فى شىء ، إلا أنها كانت كلما صعدت إلى سطح الماء تذكرت أن تقول أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه ، ولكن جهلها بالعوم لا يمهلها أن تقول شيئًا ، فهى ما تلبث أن تعود إلى الغمرة مرة أخرى ولايعى ذهنها شيئًا . حتى ارتطمت يداها بشىء فى الماء ما لبثت أن تعلقت به كان قدميه . وتشبثت بهما وصعد فمها إلى الهواء وقالت أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمدًا رسول اللّه ، ولكن فى

هذه المرة كانت تحمل معنى العودة إلى الحياة بعد أن كانت تريد أن تقولها في وداع الحياة .

وحين استقر جسمها على الأرض أحست أنها تكره ذلك الفتى الذى أنقذها ، فقد كانت واثقة فى لحظتها تلك أنه هو وحده السبب فى غرقها وأنه لولاه ما ألقى بها الملائكة إلى برائن التهلكة ، قليلا ما أحست بكره فتاها ، وما أضأل الكراهية التى أحست بها نحوه ، كغلالة من دخان لا تحجب وتعتم ولا تكاد ترى . قليلا ما أحست بهذا الكره .

ثم أنا المخطئة ، إنه أنا التى كنت أفكر فيه وليس هو . أحببته كما كنت أحبه . ولم أزد فما كان ثمة فى قلبى مكان لزيادة كنت أحبه بعد اللّه وبعد النبى وقبل .. ولماذا المقارنة كنت أحبه بكل ما أعرفه من معنى الحب . لكم فرحت وهو يلقى إلى خبر سفره جاعلا عبد الصادق طريقه إلى . ما الذى جعل اسمه عبد الصادق ؟ أنا لا أحبه . فإن الذى يلد عتريس ليس خليقًا أن يحب أبدًا . كيف استطاع هذا الإنسان الذى يأتى إلى بيتنا والذى يحاول أن يضحك دائمًا ويمزح ويقهقه ، كيف استطاع هذا الإنسان أن يلد كل هذا الهول الذى يملأ القرية والقرى المحيطة بها بل البعيدة عنها أيضًا . أنا لا أخافه فأنا واثقة أن اللّه أكبر منه وأقدر عليه من العبد ، ولكنى أكره هذا الخوف الذى يلقيه فى قلوب الناس . أكره الرعب من غير النار وأكره الخشوع لغير اللّه . وأكره السلاح الذى يسلطه على حياة الناس . فحياتهم قلق ومشقة وخوف . ولكن « عتريس » يسلط عليهم الخوف كل الخوف فهم فى رعب لا يتركهم ، رعب دائم لا يتخلى عنهم حياتهم جميعًا . كم كان حافظ ذكيًا وهو يلقى إلى الحديث عن طريق عبد الصادق . لقد فهمت زكية أم عليوة ما كان يريده حافظ من حديثه ، ما الذى جعل أباها يسمى عليوة وماذا أعجبها فى الاسم حتى تسمى به ابنها

أيضًا ، أصبح عليوة محاميًا ، ولكنه لا يريد أن يترك الدهاشنة بل هو باق بها ويذهب إلى البندر فى كل يوم . لكم يكره الشيخ عبد التواب عليوة ابن زكية أم عليوة ! كان الشيخ عبد التواب قبل أن يصبح عليوة محاميًا هو مفتى القرية لا ينازعه فى فتواها أحد . واليوم هبط عليه هذا المحامى لا يكتفى بالقضايا والإجرام بل يفتى فى الدين أيضًا . ألهذا السبب يكرهه . هل الكراهية شىء بسيط إلى هذا الحد ؟ كيف يسمح الشيخ عبد التواب لنفسه وهو يحمل كلام الله ، الله الرحيم الغفور ، كيف يسمح لنفسه أن يسب عليوة للناس ويرميه لهم بالجهل والكفر والزندقة ؟ هل الكفر والزندقة شىء بسيط يرمى به الناس هكذا دون تفكير . فهمت زكية ما كان حافظ يريد أن يقول . خبيثة زكية ، وكانت تبتسم دائمًا كلما ذهبت إلى الصفصافة فى موعدى اليومى . وكثيرًا ما كانت تقول وصية حبيب القلب . أنا شاهدة على الوصية ، وإذا قلت فى جد إنما أملأ الجرة ضحكت فلا يفلح جدى ولا تقطيبى أن يخفى شيئًا مما أضمر . لماذا نحاول أن نخفى الحب فى حين أن الشيخ عبد التواب لا يحاول أن يخفى الكراهية . جميل هو الحب .. حب الله وحب النبى وحب الزوج ولكنه لم يكن زوجى حينذاك .

وحين طلب حافظ يدها من أبيها كان أبوها حريصًا أن يسألها رأيها . وسأل وسكتت ثم ابتسمت ثم أومأت أن نعم . وحين تزوجا وخلت بهما الحجرة وقبلها حافظ أومض فى ذهنها أن هذا حرام . ثم ما لبثت أن تذكرت أنه زوجها وأن الحرام كل الحرام ألا تطيعه إذا قبلها فأطاعت . وحين انتقلا إلى القاهرة امتلأ قلبها خوفًا . كيف تترك مهد حياتها جميعًا منذ الطفولة التى لا تعيها إلى البواكير الأولى من الصبا والكتاب وحافظ وذكريات هواها وأباها وأمها وصديقاتها وجميع هذه القرية بمن فيها من

ناس . ناس تعرفهم جميعًا وكلّمتهم جميعًا . تحية عابرة أو حديثًا طيبًا سمحًا . وأولئك الصديقات اللواتى طالما طلبن منها أن تؤدى لهن خدمات . تلك الخدمات الصغيرة الحبيبة إلى النفس ، تلك الأشياء الدقيقة الرقيقة فى حياة الناس التى تزيد الصلات قربًا وتجعلها قوية متينة . تحب أولئك الصديقات اللواتى توكن لها أطفالهن ريثما يقمن بشأن من شئون حياتهن المليئة بالعمل . أو أولئك اللواتى طلبن إليها أن تملأ لهن الجرار لأنهن مريضات ، أو أولئك اللواتى سألنها أن تشاركهن فى خبز العيش . تحبهن أكثر من أولئك اللواتى أدين لها هى الخدمات الصغيرة . كيف تترك هذا جميعه إلى القاهرة ؟

ويلى من القاهرة واسعة سعة الدهر . ولكنها لى .. لى أنا كانت ضيقة ضيق اليأس . وحيدة أحس الوحدة لأول مرة فى حياتى . هناك فى القرية . فى الدهاشنة كنت أجد الأنس مهما الوحدة محيطة بى . أما هنا فى القاهرة فأنا فى وحدة مهما تكن الجارات حوالى . أنا هنا فى جزء من بيت إن رفعت صوتى عن الخفوت قليلا أصاب كثيرًا من الآذان ، ولكنه لا يصل إلى قلب أحد . أما هناك فقد كانت نجواى تبلغ إلى القلوب وإن لم يصل منها إلى الآذان شىء . وحيدة كنت فى القاهرة . فما كنت أستشعر الأنس ولا الألفة ولا الاطمئنان إلا حين نلم بالقرية فى زيارة عابرة أو زيارة فيها شىء من المكث والقرار .

ثم جاءت فؤادة . ما أحلى فؤادة . ماذا أفعل ، وهى فى كل يوم ذاهبة إلى الست تفيدة وتفهم أباها وتريد أن تفهمنى أن الزيارة موجهة إلى تفيدة ؟ كأنى لا أذكر أيام كان طلعت طفلا ، فكان لا يترك منزلنا منذ مشرق الشمس حتى يضمه بيته عند المساء . كأنى لا أذكر هذه النظرات التى كانا يتبادلانها وهما يتلمسان طريقهما إلى الباب كل منهما يتعرف على شبابه فى عين الآخر . كنت أرى . وحين عرف كل منهما شبابه وكادت

المعرفة تتوطد انقطع كلاهما عن رؤية أحدهما الآخر أمام النـاس . ولكنهـا تذهب إلى الست تفيدة . كم هى جميلة فؤادة وكم أخشـى عليهـا ، ومـاذا أقول لأبيها .

لا أنسى يوم مولدهـا ، أول مـرة رأيتهـا . رأيـت حبـى لحافظ يتجسـم أمامى فإذا هو حبى للحياة . هذه النظرات الذاهلـة التـى مـلأت مـا حـولى أنسًا وهداية رأيت فى وجهها اللّه . ولم لا ؟ أليست الإنسانية كلهـا ناشـئة عن فؤادة ؟ وهل هناك آية أعظم من الإنسان . لقد خلق اللّه الكثير وأنزل الأديان ، ولكن آيته العظمى مازالت هى الإنسان . سره الغامض وصرحـه الضخم وبنيانه الذى لا يبلى . فهو باق فى الدنيا وفـى الآخـرة لا ينتهـى . كانت فؤادة حلوة كـالأمل تحقـق ، كابتسـامة خـالدة علـى وجـه الزمـن . وحين جئنا إلى القرية لم أشأ أن يقتصر تعليمها على الدين كما كـان الشـأن معى . فرحت ألح على كل ذى علم فى القرية أن يعلمها من علمـه شـيئًا . وأحبت القراءة . وأحبت المدرسـة وأصـرت علـى الذهـاب إليهـا . أتراهـا تكلم طلعت فيما تقرأ . ماذا أقول لأبيهـا عـن طلعت ؟ لا بـأس أن يتزوجهـا . أتراني لهذا أغمض عينًا كان من واجبها أن تتنبه . إنى واثقة من ابنتى . بـل واثقة من طلعت . ولا بأس به أن يتزوجها . فحافظ وإن جهل مكان نفسـه من أعيان الدهاشنة . وإنى أرى فايز بك لا يستكبر مثلما كان أبوه يستكبر وأرى طلعت أكثر تواضعًا . وهل يعرف القلب كـبرًا ؟ لعلـه الشـرف كـل الشرف أن تحبه فؤادة وأن تتزوج منه . وهل هناك شرف أبعد أو أعظم من أن يلتقى حبان ويتناجى قلبان ويكتمل الهوى بينهما بزواج ، الزواج الشرعى الـذى أراده اللّـه يـوم شـرع الـزواج . هـو الحـب ، الحـب وحـده الشـريعة . ومراسم الزواج إعلان لهذه الشريعة أن تذيع بين الناس فلا يكـون الـزواج بغير حب . ألم يحتم الشرع رضاء الزوجة وطلب الـزوج . فهـو الحـب إذن

مهما تكن منابعه ، قد ينبع عن العقل أو قد ينبع عن القلب . وعن أى المصدرين يصدر يصبح زواجًا شرعيًا . هى تحبه ؟ لم تقل . ولكن ما ذهابها إلى الست تفيدة كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، أو كلما اختلقت إلى ذلك سبيلا . وهو يحبها ، وإلا فما بقاؤه فى البيت كلما ذهبت . نعم إنى أسألها هل كان طلعت موجودًا ؟ وتجيب بنعم سريعة ، وكأنها لا تفهم ما أقصد إليه . وتبحث فى سرعة وفى ذكاء عن موضوع آخر . والعجيب أنها دائمًا تجد الموضوع الآخر . لن أقول لحافظ شيئًا . أأقول ظنونًا قد تصدق أو لا تصدق ؟ أأثير مخاوفه ومكامن القلق من أجل أفكار ؟ .. إنما هى أفكار وهل تأكدت من شىء ، وهل ثمة شىء أتأكد منه ؟ مجرد نظرات لعلى رأيتها بآمال وبما أهفو إليه من مستقبل ابنتى . أصلى أربع ركعات لله أن يعود زوجى آمنًا سالمًا . الله أكبر . ولم تفكر فى شىء وهى تصلى إلا أن تتلو الآيات فى خشوع وإيمان ، وتؤدى الصلاة على أكمل وجه حتى إذا أتمتها وسلمت عن يمين وشمال راحت ترنو إلى الأريكة التى تواجهها . بحسبها أن يعود زوجها سالمًا فيلبس جلبابه وطاقيته ويربع رجليه على هذه الأريكة ، ويروى لها عن القاهرة وما رآه . إنها لا يهمها من أمر القاهرة شىء ، ولكن يهمها كل الأهمية أن يجلس زوجها على الأريكة ويروى .

(٣)

كل ما يحيط بها آمن . هى واثقة من الزمن ، واثقة من نفسها ، لا تعبأ بشىء ، تفعل ما تراه خليقًا أن يفعل ، لا يهمها رأى أحد ما دامت هى مطمئنة إلى رأيها ، أحبت فلم تخف من الحب . وقد مشى الحب إلى قلبها مذ عرفت قلبها ، فقد تعرفت على قلبها أول ما تعرفت وفيه هواه . منذ هى طفلة وقلبها طفل وشبا وشب الحب معهما . لم يعنها أن تحب البك ابن

البك ! ابن الباشا . وإنما أحبت في صراحة مع نفسها ، وفي اطمئنان ودون خوف .

فالحب عندها نبضات قلب ، وما كانت تتصور أن قلبًا يعيش دون نبضات . لم تعلن حبها إلى أحد لأنها لم تر داعيًا إلى إعلانه . ولم تهمس إلى طلعت وإنما كانت تعرف أنه يحبها ، وأنه يعرف حبها له . فقد همس لها يومًا :

ـ أتحبينني قدر ما أحبك ؟

وابتسمت له ابتسامة تعرف هي ما حملته من معان ثم لم تزد شيئًا .

واستمر حبهما بعد ذلك على أساس من هذا السؤال الطيب وهذه الابتسامة المحملة بالمعاني . وقد كانت واثقة من نتائج حبها ثقتها أن اسمها فؤادة ، وأن اسم حبيبها طلعت ، وثقة أخرى كانت مستقرة في قلبها . كانت تعتبر الحب هو الزواج الحقيقي وأن ورقة المأذون إنما جعلت لإعلان هذا الحب :

كانت كلما سمعت عن زواج في القرية سألت العروس :

ـ أتحبينه ؟

فإن أجابتها :

ـ نعم .

قالت .

ـ إذن فهو زواج .

وإن قالت لها :

ـ أمر أبي .

أو :

ـ أمر أمي .

سكتت فؤادة بلسانها ، وقال قلبها لم يتم زواج . إنها وجدت معنى الحب هذا العميق ضاربًا في الأعماق البعيدة في نفسها ، فكأنما ولدت ومعها هذا المعنى . ويا طالما سمعت أمها تعيد هذا الكلام ، فما كانت تحب من أمها حديثًا مثل هذا الحديث . بل كانت تدهش إن وجدت رأيًا لا يتفق ورأيها هذا . كان الحب عندها هو أنغام الحياة جميعًا . فإن سمعت موسيقى فهي رسول من وادى الحب الظليل . وإن قرأت شعرًا فمنبته في رأيها أفناء الحب الوارفة . وإن رأت يدًا كريمة لفقير بائس أو محتاج في ضنك ، فاليد ممتدة أولا وقبل كل شيء من منابع الحب الصافية الخالدة في أعماق الإنسانية . الحب هو جمال في الحياة ، هو كل معنى كريم في صلات الناس . وحين يتلاشى الحب أو يهن بين القلوب فالحياة إلى شر وعذاب وألم ، فالجريمة لم تصبح جريمة إلا لأن صاحبها لم يدر ما الحب ، فلو درى الحب ما أجرم . والشرور كلها تنضح عن آنية البغضاء أو الحقد أو الطمع خلت من الحب .. والحب هو كل حياة جميلة في الحياة .

هائمة فؤادة في معاني الحب وفي ألوانه ، تحب الحب بكل نأمة من كيانها وكل نبضة من قلبها وكل مسرى في دمائها وكل عرق من أعراقها . تمثل لها الحب جميعًا في كل صلة من صلاتها ، فهي تحب أمها وتعجب بها أحيانًا ولا تعجب بها أحيانًا أخرى ، ولكنها تحبها . وهي تحب أباها وتعجب به أحيانًا حين يحنو عليها ويعطف على أمها ، ولكنها لا تعجب به حين يخاف من عتريس ومن عبد الصادق ، ثم تظل مع ذلك تحب أباها . وهي تحب اللّه ولا تناقش من شئونه شيئًا ، وإنما هي تحبه ولا تحاول أن تعلل هذا الحب أو تتعمق أسبابه أو منابعه . هي تحبه وكفى ، وتخشى أن توجد لحبها أسبابًا حتى لا يهن هذا الحب ولا يضعف . ثم هي تحب الناس أجمعين . لها في لقائهم ابتسامة لا يشعر بها الناس ولكنهم يجدون أنفسهم تميل إليها دون أن يحللوا أسباب هذا الميل . كانت فؤادة قديرة على أن

ترسل إلى نفوسهم إشعاعات خفيفة من الحب الذى تحمله لهم ، فيجدون أنفسهم يميلون إلى فؤادة . لا يدرون إن كانت هذه الإشعاعات مرسلة إليهم عن طريق هذه الابتسامة التى تنبعث على شفتى فؤادة ويبين فيها أنها متصلة الجذور بالأعماق البعيدة من نفسها ، وليست ابتسامة على السطح مبتوتة الأصول لا تعبر عن أعماق القلب . لا يدرون . أكانوا يميلون إلى فؤادة لأنها كانت تستمع إلى شكواهم بكل نفسها . وتندمج فى مشاكلهم ، فكأنها مشكلتها ، يكادون يرون نبضات قلبها تنبض بمخاوفهم وآلامهم وآمالهم . لا يدرون أكانوا يميلون إلى فؤادة لهذا أم لأنهم لا يجدون داعيًا ألا يميلوا إليها . كان كل فرد فيهم يعلم أنها تحمل مشكلته ومشاكل الآخرين فى أعماق قلبها . فلم تذع يومًا سرًا لأحد منهم . وكانوا يحسون أن مجرد رواية ما يعرض لهم من هموم على فؤادة هو فى ذاته بداية التخفيف من هذه الهموم . أولئك الذين كان يؤذيهم عتريس كانوا يشكون لها ، وكانوا يرون وجهها يفيض بالحزن والألم والأسى . وكان يكفيهم أن يروا هذا فى وجهها حتى يحسوا أنهم ليسوا وحدهم فى الحياة . وكانت فؤادة تزداد فى كل يوم بغضًا لعتريس . فهى كما تعرف الحب الشديد الصافى للحياة وأبناء الحياة ، تعرف البغض الشديد لأعداء الحياة وأبناء الحياة .

كان الرجال أكثر الشاكين إلى فؤادة من إجرام عتريس . وكان قلب فؤادة ينصدع لشكوى الرجال وكانوا يحسون بمشاعرها . كانت خلجات فؤادة جميعها تظهر على وجهها ، فكان من يكلمها يحس أنه يخاطب قلبها مباشرة لا أذنيها ولا وجهها . وكان يحس أنه يتلقى حديثها من قلبها لا من لسانها ، فكان صدى حديثها فريدًا فى نفوسهم لا يشبهه حديث أحد من الناس الذين يعرفون .

ولكن هناك واحدًا فى القرية لا يترك فرصة يراها فيها إلا حادثها حديثًا ليس فيه شكوى ، وإنما هو حديث من نوع غريب فيه إخلاص وفيه تقدير . كان ذلك هو الشيخ إبراهيم علام ، وهو رجل يملك فى القرية فدانين يزرعهما هو وولداه محمود وطه يعيشون من محصولهما . وكان كلما التقى بفؤادة أحب أن يحادثها ، وكانت هى أيضًا تحب أن تحادثه حديثًا عابرًا ولكنه كان حبيبًا إلى كل منهما .

كانت فؤادة فى ذلك اليوم فى طريقها إلى الست تفيدة ، وكان الطريق خاليًا بها حين نبت الشيخ إبراهيم من ثنية فى الطريق فوقفت فؤادة وقال الشيخ إبراهيم :

ــ صباح الخير يا ست فؤادة .

ــ صباح الخير يا عم الشيخ إبراهيم .

ــ اللّه معك .

ــ إنه معى .

ــ لأنك معه ... أنت تحبين اللّه يا فؤادة وهو يحبك .

ــ ويحبك أنت أيضًا يا شيخ إبراهيم .

ــ موفقة دائمًا إن شاء اللّه .

ــ شكرًا ياعم الشيخ إبراهيم .. ادع لى .

ــ أدعو لك دائمًا .

ــ أفوتك بعافية .

ــ مع السلامة .

وانصرفت فؤادة إلى بيت الست تفيدة ، واتخذ الشيخ إبراهيم طريقه إلى غيطه .

(٤)

حين ترك الشيخ إبراهيم فؤادة لم يمش كثيرًا وحده ، فما أسرع ما رافق طريقه عبد الغنى حسون لسان القرية المنتشر ، ينقل أخبارها ويكسب عيشه من نقل هذه الأخبار . فهي وسيلته أن يحادث الناس ، ولن يعدم الناس لقمة يقدمونها له أو نصف قرش يبرونه به وهو بهذا قانع . وهو يحب عمله ويخلص له كل الإخلاص . ويتتبع الأنباء من مصادرها وينقلها إلى كل من يلقاه ، فما هى إلا دورة منه أو دورتان حتى يصبح الخبر ملء القرية جميعها .

وقد كان عبد الغنى حين التقى بالشيخ إبراهيم محملا بالأخبار ، ولم يكن قد التقى بأحد بعد ، فراح يلقى أخباره فى دقة ، وقد كان قادرًا وهو يلقى أخباره أن يسوقها فيما يشبه الحديث العادى بين الأصدقاء . وكان الشيخ إبراهيم لا يعلق على أخباره بغير جملتين يختار الواحدة منهما حسب ما يقتضيه الخبر . فهو إما أن يقول : « الحمد للّه » أو يقول : « أعوذ باللّه » ولا يزيد .

وقد كانت الأخبار فى ذلك اليوم مليئة باسم عتريس ، فهو قد سرق بهائم عبد العال التش ويطلب لها حلوانا مائة جنيه . وهو أيضًا أغرق أرض حسنين أبو شوشة لأنه كان قد ذكره بسوء فى فرح أبو ديب ، وهكذا لم ستعمل الشيخ إبراهيم عبارة الحمد للّه إلا مرة واحدة فى هذا الحديث الطويل حين أخبره عبد الغنى أن عبد الباقى عمارة قد أنجب ولدا بعد أن انتظر هذا الإنجاب مدة ثلاث سنوات .

اقترب الشيخ إبراهيم من غيطه ومعه عبد الغنى حسون ، وبلغت آذانهما أصوات ضجيج وتصايح فحثا الخطا ، وعند الغيط رأى الشيخ إبراهيم ولديه محمودًا وطه ومعهما جاره علي يهدد ، وقد راح ثلاثتهم يتبادلون الوعيد . فعلي يهدر بقوله :

ـ واللّه أكسر رجل من يقترب من الماء .

ويصيح محمود :

ـ أنت تكسر رجل من يقترب . واللّه مصائب .... ياأخى عيب . واللّه إنك لا تتحمل منى خبطة .

ويصيح على :

ـ خبطة فى رأسك ورأس من خلفوك .

ويقول الشيخ إبراهيم ولم يكن الجمع الثائر قد رآه بعد :

ـ وما ذنب من خلفوه يا عم على ؟ ..

ويصيح على فى ثورة :

ـ نعم أنت الآخر .. ماذا تريد ؟

ـ خيرًا يا ابنى ، خيرًا إن شاء اللّه .

ـ شغل الطيبة هذا لا ينطلى علىّ .

وصاح طه :

ـ يا ولد اصح شف من تكلم .

ويقول على :

ـ يا سيدى طظ فيك وفيمن أكلم .

ويقول الشيخ إبراهيم :

ـ كثر خيرك ياابنى .

ويهاجم طه عليًا يريد أن يضربه ويلحق به محمود ، ويقول الشيخ إبراهيم فى حزم وهدوء :

ـ ارجع يا طه .. ارجع يا محمود .

ويقف الشابان ويقول طه فى ضيق :

ـ آبا ..

ويقاطع أبوه :

- ولا كلمة .. ماذا حصل يا سى على ؟

ويقول على :

- آه ... آه يا حبيبى .. كل عقلى أنت .. ياسى على قال . قال ياسى على .

- يا ابنى ماذا حصل ؟

- لا أدرى .

ويقول محمود :

- يريد أن يروى غيطه قبل أن نروى نحن .

ويقول الشيخ إبراهيم :

- ولكن الماء يمر بنا أولا .. وقد ظللنا العمر كله نروى قبلكم حتى أيام المرحوم أبيك كنا ..

ويقاطعه على :

- لا شأن لى بأبى ..

ويحاول عبد الغنى أن يقول :

- لا حق لك يا على .

ويزجره على فى عنف :

- اسكت أنت يا ضائع .. ما شأنك أنت ؟

ويقول الشيخ إبراهيم :

- أنت ترى أنك على حق يا على ؟

- نعم .. على حق وعلى حق .. ومن لا يعجبه يشرب من البحر .

- لا يا ابنى لا بحر ولا ترعة .. ارو أرضك .. هيا يا محمود . هيا يا طه .

ويقف الشابان ويقول محمود :

ـ يا آبا أقسم باللّه إنه لا يتحمل خبطة .. ألا ترى يا أبى هزاله .. لماذا نخاف منه يا أبى ؟

ويقول الشيخ إبراهيم :

ـ أنا لا أخاف المخلوق أبدًا .

ـ وهل يرضى اللّه بهذا ؟

ـ لا تطل الجدال .. الجار أغلى من الأرض .. هيا ..

ويقول طه :

ـ يا آبا هذا .

ويقول الشيخ إبراهيم فى حزم :

ـ ولا كلمة .. هيا معى إلى البيت .

ويمشى ثلاثتهم ومعهم عبد الغنى الذى ما يلبث أن يقول فى صوت خافت :

ـ لماذا لم تتركهما يؤدبانه يا عم الشيخ إبراهيم ؟

ـ المؤدب ربنا يا عبد الغنى .. المؤدب ربنا .

ويذهب الجميع إلى بيت الشيخ إبراهيم ، ويقول عبد الغنى فى نغمة متخاذلة :

ـ أستأذن أنا يا عم الشيخ إبراهيم .

ويقول الشيخ إبراهيم :

ـ بل نفطر معًا .. هات لنا لقمة يا طه .

ويدخل طه إلى البيت . ويقول عبد الغنى :

ـ ألم يبق إلا على بهدر حتى يتطاول عليك ؟!

ويقول الشيخ إبراهيم :

ـ دع على بهدر فى حاله .. قل أنت بماذا سمى عبد الباقى ابنه ؟

ويفهم عبد الغنى أن الشيخ لا يريد أن يسمع ذما فى على بهدر ، فيدير الحديث إلى حيث يريد الشيخ ويقول :

- أسماه عمارة على اسم أبيه .

- ونعم ما فعل .

ويروح عبد الغنى يلقى أخبارًا أخرى عن القرية والشيخ يسمع . ويأتى الطعام فيفرغ له عبد الغنى بجميعه ، وما يلبث أن يأتى إليهم فى مجلسهم عبد الباقى عمارة ويستقبله الشيخ مرحبًا :

- أهلا عبد الباقى .. كنت قادمًا إليك لأهنئك .

- أطال اللّه عمرك يا عم الشيخ إبراهيم .. قل لى .. أين محمود وطه ؟

- هنا .. أتريدهما فى شىء ؟

- لا .. لا شىء ، ولكن رأيت المياه فى الغيط ولم أرهما فحسبت أن شيئًا عاقهما عن رى الأرض .

- المياه فى غيطى أنا ؟

- نعم .

- هل رأيتها بعينيك .

- نعم الآن .. كنت عند الغيط الآن ، وجئت إلى هنا مباشرة لأطمئن عليهما .

ويخرج طه ومحمود مسرعين ، ويقول محمود :

- هل أنت متأكد يا عبد الباقى ؟

- أقول لك كنت فى الغيط الآن .

ويقول طه :

- هل رأيتها بعينك ؟

- وهل كنت سأراها بأذنى .. طبعًا بعينى !

ويلتفت طه إلى أبيه :

ـ أرأيت يا أبى ؟

ويقول الشيخ إبراهيم :

ـ انتظر حتى نرى .

ويقول طه :

ـ وهل بقى فيها انتظار .. على أغرق الأرض .

ـ قلت لك انتظر حتى نرى .

ويلتفت طه إلى محمود :

ـ أحضر فأسك وفأسى من الدار يا محمود . هلم بنا .

ويقول الشيخ إبراهيم :

ـ قلت لك انتظر حتى نرى .

ويقول طه :

ـ نأخذ الفؤوس معنا .

ويقول الشيخ إبراهيم :

ـ بل نذهب بغير فؤوس .

ويقول طه :

ـ يا آبا ..

وقبل أن يكمل يقاطعه الشيخ إبراهيم قائلا :

ـ لا تطل وهلم بنا .

ويقصدون جميعًا إلى الغيط ومعهم عبد الغنى وعبد الباقى عمارة وحين يقتربون من الغيط يجدون الماء فيه فعلا ، ولكنه ماء من يريد أن يروى لا من يريد أن يغرق . وما لبثوا أن تأكدوا أن الماء يجرى فى غيطهم تجريه يد صناع تحنو على الأرض ، وتعطيها من الماء ما يكفيها دون زيادة أو نقصان .

ووجدوا على يقوم برى الغيط فى هدوء وسعادة .. وينظر خمستهم بعضهم إلى بعض ويبتسم الشيخ إبراهيم ولا يقول شيئًا لهم وإنما ينادى من أقصى الغيط :

ـ ماذا يا على ؟

ويأتى على مسرعًا ويمسك بيد الشيخ إبراهيم .

ـ سامحنى يا عم الشيخ إبراهيم .

ـ لا عليك يا ابنى .

ـ خجلت منك بعد أن انصرفت فرحت أروى الغيط وحدى لعلى أرضيك وأرضى نفسى .

ويلتفت الشيخ إبراهيم إلى ولديه :

ـ انزل يا محمود أنت وطه مع أخيكما وارويا معه أرضنا حتى إذا فرغتم فارويا معه أرضه .

ويتقدم الأخوان من على وما يلبثان أن يعانقاه ثم يأخذ ثلاثتهم سمتهم إلى جدول الماء .

وينصرف الشيخ إبراهيم وفى رفقته عبد الغنى وعبد الباقى صامتين .

(٥)

إنعام . وجه مستدير وعينان واسعتان تنظران إلى الدنيا فى جرأة وبغير اهتمام ، وأنف كبير بعض الشيء ، وشعر أسود فاحم غزير ينسكب من المنديل حتى ليغطى رقبتها الطويلة . وهى ذات قوام فارع يميل إلى النحافة . تركها أبوها عبد العليم وهى بعد طفلة ، ولم تكن أمها ذات جمال ، ولا هى ذات مال ، فراحت تعمل فى القرية طولا وعرضًا تجمع ما يقيم أودها وأود ابنتها فلا تكاد . ونشأت الفتاة وحيدة . واستقبلت الحياة أول ما استقبلتها وقد أدركت أن ليس لها فى هذه الحياة إلا نفسها ، فاعتمدت على نفسها

هذه كل الاعتماد . وحين شبت عن الطوق ضربت فى غمار العمل ، وتعلمت .

تعلمت كل شيء عن الرجال . فقد أدركت أنهم هم الذين يسيرون هذه الحياة وفق ما تشتهى آراؤهم وعقولهم ، فلم تجد أى فائدة أن ترضى النسوة بل وجدت الفائدة كل الفائدة أن يرضى عنها الرجال . ووافق العلم الموهبة فإنها حين بلغت الثالثة عشرة عرفت كيف تبدو جميلة ، وعرفت كيف تحسن الابتسامة ، وكيف تتقن الضحكة ، بل كيف تجمل التجهم إذا أرادت التجهم ، على قطعة من مرآة مكسورة فى زاوية من زوايا بيتها . كانت إنعام تقوم بالتمرين اليومى وكانت تطبق ما تفعله فى البروفة بينها وبين مرآتها على مسرح الحياة الكبير ، فما إن بلغت السادسة عشرة حتى كانت حديث الشباب فى القرية جميعًا .

لم تكن أجمل فتيات القرية ، ولكنها كانت أقدر الفتيات فيها على إرضاء رجال القرية جميعًا . فللشيخ المسن عندها ابتسامة تعيد إلى نفسه ما انقضى من شبابه ، وللشباب المغرور ضحكة تؤكد ثقته بنفسه ، وللجميع . لها مشية تلتقط الأنظار التقاطًا فتجعلها تتبعها إن هى أدبرت أو تستقبلها إذا هى أقبلت .

وحين بلغت السابعة عشرة كان رشدى عبده قد ورث عن أبيه عشرة أفدنة وجسما ناحلا ، وتقدم رشدى للزواج منها ووجدت فيه آمالها التى نسجتها وهى تطالع المرآة الكسيرة ، وسارعت تقبل الزواج .

وأقبل رشدى على الزواج إقبالة لهفان مشوق ، وفى يوم الزفاف جلس إلى رفقة طالعوه بحديث اضطرب له بعض الحين :

ـ ماذا أنت فاعل الليلة يا أبا الرشد ؟ .

ـ ما فعله آباؤنا وأجدادنا !

ـ ولكن البنت فى صحة تأكل الحديد ، وأنت ..

ـ وأنا ماذا بى .. لا يغرك ما تراه من نحولى .

ـ لا يابنى هذا الكلام لا ينفع ، لابد مما ليس منه بد .

ـ وما هذا الذى ليس منه بد ؟

ـ قرش أو قرشان .

ـ بسيطة .

ـ يتهيأ لك .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أعطنى خمسين قرشًا .

ـ ألم تقل قرشًا أو قرشين ؟

وتعالى الضحك من الرفاق ، وأدرك رشدى ما يقصدون فقال :

ـ آه تقصد الـ ..

ـ آه أقصد الـ ..

ـ لا ياشيخ .

ـ بل نعم يا شيخ .

ـ أنا لم أذقه فى حياتى .

ـ فأنت بين اثنتين .. إما أن تذوقه ، أو لا حياة لك على الإطلاق .

ـ صحيح ؟

ـ جرب .

ـ هاك الخمسين قرشًا .

وحين جرب رشدى وجد نفسه يهيم فى ملكوت من الأحلام والرؤى ، فهو الذى يرى نفسه ضئيلا كالوهم ، نحيلا كالخيال ، أصبح فى رأى نفسه أسدًا هصورًا مزدحمًا بالشجاعة . فما عتريس حينئذ أمامه إلا فأر صغير هزيل

وما أعماله إلا لعب أطفال لا قيمة لها .. أين منه عتريس حين يخلو بـه مخدره .. وتزوج رشدى وأصبح منذ هذه الليلة وهو لا يفيـق . وكـان يطيـب لـه أن يدعو رفاقه إلى جلسة المخدر . وكان يخيل إليه أنـه يرضـى بـالمخدر زوجتـه الإرضاء الذى لا مثيل له . وعلى هذه العقيدة كان يبيـح لنفسـه أن يتـأخر فى جلسته إلى الهزيع الأخير من الليل .

وسرعان ما استقرت العادة عند إنعام . فأصبحت على ثقة فى كل ليلـة أن زوجها لن يعود إلا قبيل بزوغ الفجر . فهى فى خلـوة مطمئنـة . وهـى من نفسها وضميرها فى بحبوحة ، وهى من جمالها وجاذبيتها فى غنى وافر ، وطالما تزاحمت حواليها قبل الزواج الآمال الملتهبة والأيدى الممتدة والمطـامع الفائرة ، وكانت هى بضحكة لا تخطئ الفريسة . تعد ولا تعطـى ، وتفسـح للآمال أبوابها . ولا تدع أحدًا يلج من هذه الأبواب من الآمـال إلى وادى الحقيقة الظليـل الـوارف . فالشـباب الهـائم بهـا علـى موعـد منهـا دائـم لا يعرفون مكانه ولا يعرفون موقته . وحين تزوجت وطالت بها أيام الزواج ، وطال بزوجها السهر وانقض عليه المخدر وأنشب فيـه أظـافر تمتـص البقيـة الباقية من صحة عليلة وشـباب ضـامر . نظـرت إنعـام إلى شبابها فوجدتـه يتسرب فى رمال الحياة ، فلا يزهر حيثما يتسرب نبتًا ، ونظرت إلى حياتها فوجدتها قاحلة بلا مال ، ومن أين لها المال وزوجها قد أولـع بـالمخدر ولعًـا أخذ عليه مسالك تفكيره جميعًا .. لمـا رأت إنعـام هـذا أصبحـت مواعيدهـا للشباب معينة المكان والموقت . ولم يكن المكان إلا بيتها ، ولم يكـن الموقـت إلا حين يغيب زوجها عن المنزل فى محاولتـه أن يغيـب عـن الوعـى جميعًـا . وأرادت إنعام أن تكسب من صلاتها بشباب القرية شيئين وقـد كسـبتهما معًا . كانت تريد أن تروى جسمها الذى أجدبـه هـزال زوجهـا ، وكـانت

تريد أن تكسب مالا ، فهي من خوف الفقر الذى عرفته في قلق دائم لا يستقر بها على حال .

وتسامع شباب القرية بهذه التجارة الجديدة التى افتتحتها إنعام فى بيت زوجها رشدى ، والمورد العذب كثير الزحام . فكانت تعطى الموعد للشاب من هؤلاء وهى فى صحبة شاب آخر لم يبارح منزلها بعد . ولم يبق في القرية من لم يعرف أمر هذه التجارة إلا رشدى . وقد كان رفاق جلسته أنفسهم يتركون جلسته ويقصدون فرادى إلى بيته ثم يعودون إلى جلسته وهو ما يزال يضحك سعيدًا . إنه ابن كيف وإنه رجل ، وإنه قوى وإنه أسد .

وفى يوم توعك مزاج رشدى ولم يحس النشوة التى ألف أن يحسها ، فقام من المجلس يريد أن يذهب إلى بيته وكان معه رفيقان له حاولا أن يستمهلاه فلم يتمهل ، فأسرع أحدهما خفية يريد أن يسبقه إلى البيت لعله يمنع الكارثة أن تقع . وبلغ صديقه البيت وطرق الباب فلم يجبه أحد فاطمأن وانصرف ، وجاء الصديق الآخر مرافقًا لرشدى في الطريق يريد هو الآخر أن يطمئن أن رشدى لن يرى مالا ينبغى له أن يُرى . وبلغ شدى البيت ولم يطرقه ، وإنما أولج المفتاح فى الباب ودخل . الظلام مس ولكن نورًا خافتًا ينبعث من حجرة النوم . سلم على صديقه وأغلق لباب وقصد إلى غرفة النوم وفتحها . وتسمر بالباب ، أغمض عينيه ثم فتحهما . تغير المشهد ولكن ليؤكد الحقيقة التى رآها .. إنها حق لن يغنى معه إغماض العين .. تزوجها من الطريق العام وجعل لها بيتًا ، وصانها عن العمل ، وباع أرضه ليشرب لها الحشيش ، ثم هاهى ذى أمام عينيه .. أحبها .. أحبها بكل دفقة دماء فى عروقه .. بكل آمال الشباب وعنفوانه .. ولم تنجب له ذكرًا ولا أنثى ، وهاهى ذى أمامه .. صرخ .. صرخ بلا حديث ..

وصرخ .. وصرخ .. وانفتل الذى كان معها قافزًا وفتح الباب الخارجى وخرج إلى الطريق وامحى فى الظلمة ولم يبق من الحادثة إلا صراخ رشدى وذهول إنعام . وتجمع الجيران ولم يسأل واحد منهم ماذا حدث ؟ فقد كانوا جميعًا يدركون ما حدث ، ولن يجيبهم أحد إن هم سألوا .. فالزوجة ذاهلة والزوج يصرخ ... آه عالية عريضة مرتفعة كصوت حيوان يعذب حيًا فوق النيران ، فلا النيران تأكله ولا هى عنه قصية ... آه معذبة والهة حرّى طويلة تنطلق من الأعماق وتجوب الجسم كله قبل أن تنفجر من فمه فتخرج كدفاع من الماء يخرج من عين ضيقة لا تتسع للسيل . طويلة هذه الآهة عريضة عرض العذاب الذى يحسها والمهانة التى يصطليها .

ونظرت الأعين إلى الزوجة وهى تتهرب من نظراتهم بنظرات واجفة تثبتها على زوجها ، وكثر الصراخ وكثر ، وارتعد الجسم النحيل ثم ارتمى منتفضًا .. وسقط رأسه على الأرض وقد علا له ضجيج يشبه صراخه الذى كان يصرخه ، وانطلق الصمت بعد الضجيج ، وألقى الناس عليه نظرة ، ولعل فكرة راودت بعضهم كيف كان هذا الصراخ جميعه ينطلق عن هذا الجسم الضئيل .. كيف اتسع هذا الجسم لهذا الألم . فكرة خطرت ، ولحظة من صمت هومت عليها الحيرة ، ثم ارتفع اللغط ، ويتقدم بعضهم منه ، وطلب بعضهم ماء وبسمل بعض وحوقل آخرون ، والجسم على الأرض ينتفض وتتقلص أطرافه وتتشنج . وغاب رشدى عن الحياة ، وانسكب عليه الماء فلم يجد الماء ، وإنعام تشهد ولا تدرى ما تفعل .. الجميع يعرفون ما جرى ، على ثقة مما يعرفون ، ولكن لن يستطيع أحد أن يشير إليها بهذا الاتهام ، فما رأوا رأى العين إلا زوجًا يعتوره الصرع ، وزوجة واجفة مما ترى عليه زوجها .

ولم يسأل أحد ماذا ، ولكن إنعام أرادت أن تقول شيئًا وقالت .. دخل وأنا نائمة . أحسست به وقمت أفتح باب الحجرة ولكنه لم يدخل ، وإنما وقف يصرخ حتى جئتم . عين وأصابتنا .. ولم يسمع أحد ما تقول .. ولكنها ظلت تقول لا يعنيها أن يسمع أحد أو لا يسمع ، وإنما هى تقول .. وانقضى بعض الحين ، وفتح رشدى عينيه ، وتهافت إليها المجتمعون .. ماذا حصل ؟.. عينان تدوران فى الناس لا تعيان من أمر الناس شيئًا . ووضع يده على رأسه حيث اصطدمت بالأرض ، ثم رفع يده ولم ينظر إليها وتعالى الضجيج من الناس ورشدى صامت ، وحملوه إلى سريره ، وانتفض مرة أخرى وهم يقتربون به إلى الفراش ، ولكنه استسلم إلى السرير ، وتخافت الضجيج وبدأ الناس يعودون إلى بيوتهم صامتين . وأغلقت الأبواب على أصحابها ، وأغلقت إنعام باب بيتها وشمل الظلام القرية جميعًا .

* * *

بعد أيام قليلة كان رشدى فى طريقه إلى مستشفى الأمراض العقلية ، وكانت إنعام عند الأستاذ عليوة تطلب الطلاق ، وقبل عليوة القضية فى طبيعة مؤاتية ، فالأمور فى ظاهرها طبيعية . الزوجة فى عنفوان الشباب ، والزوج فى سراى العباسية ، والقانون يبيح لها طلب الطلاق . وما هو إلا قليل من الحين حتى كانت إنعام مطلقة تمارس تجارتها بلا خوف ولا حذر . والمورد العذب كثير الزحام .

(٦)

الآمال الباسمة ، والأحلام الوردية ، والرؤى والجمال ، وأيام الشباب المزهرة بالخيال ، الرحيبة بالثقة ، المفسحة للمستقبل أبوابًا من الجنة ، وسبلا من المجد ، وطرقًا من الرفاهية ، وخمائل من الهناء . أيام كانت اللذة الحالمة أحلى من اللذة الماثلة ، وكانت النظرة إلى الأيام المحجبة فى ظلال المستقبل تحيل الحاضر القاسى المرير فردوسًا أخضر الجوانب ، مخضل النبت ، مزدهر المرأى بأنواع الأزاهير ملتهبة الألوان ، تكسب فى القلب الدفء والسرور المفعم باليقين ، والاطمئنان المضمخ بأريج العزة والجاه ...

هذه الآمال التى كنا نعلقها بالأيام القابلة من حياتنا ، ونحن نعلم أن الأيام ستجعل من هذه الآمال حقيقة ، علمنا بأن هذه الأيام قادمة مع المستقبل . حلوة هذه الأيام . ولو لم تكن فيها إلا هذه الأحلام ، لكانت وحدها واحة الحياة ، تلجأ إلى ذكراها من الهجير الذى لقيتنا به الأزمان .. هذه الأيام التى وثقنا بها فخانت ، وألقينا إلى أيديها آمالنا فإذا الآمال هشيم ، وإذا الذى كان فى يقيننا مستقبلا مضمخًا بأريج العزة ، يصبح ماضيًا حقيرًا أقتر حسيرًا تلف حواشيه أتربة الريف المتصاعدة من مشى البهائم على الطريق .

أين ممدوح ؟ .. كان إذا دخل الفصل أقف له .. وكيف لا أفعل وأنا ذلك الشىء الذى سبح كالهوام من أعماق الريف .. من هنا .. من الدهاشنة .. إلى القاهرة .. أم الدنيا .. أى دنيا تلك التى يقولون إن القاهرة أمها .. دنيا حقيرة لا تزيد على الدهاشنة .. من هؤلاء الذين يقولون إن القاهرة أم الدنيا .. زحفت إليها كالهوام وأدخلونى إلى فصلى بكلية الحقوق ، وأقبل بعد حين ممدوح فتى سمهرى القوام فارع الطول أبيض البشرة كأنما بشرته لم تلتق بالحياة .. ناعم الشعر صقيله ، قد مشطه صاحبه فى عناية فجعله

يبدو مؤدبًا مطيعًا لا تند منه شعرة ولا تثور ، إنما هى مع رفاقها تجعل من رأس الفتى الجميل تحفة فنية رائعة .. لماذا تعطى الحياة فتغدق ، ولماذا تمنع فتغلو فى البخل ؟ . هذا الفتـى الحلـو لا يملـك أحـد أن يراه ولا يسـأل مـن هـذا ؟ شخصية .. واضح أن الحياة تحبه وتهب له فى بذخ .. أليـس هـذا الجمـال موهبة كموهوب فى الفن أو موهـوب فـى العلـم .. أليـس الجمـال موهبـة ؟ .. سألت من هذا .. ونظر إلى التلميذ الذى كان بجانبى .. شاب مثلى زحـف أبوه من الريف وأنجب أبنـاءه فـى القـاهرة ، فلـم يغـير هـذا منهـم شيئًا .. أصبحوا جميعًا قطعًا من الريف وإن ولدت بالقاهرة .. سـألته مـن هـذا ؟ .. قال : ممدوح بن حمدى باشا صفوت وزيـر الزراعـة .. ولكـن حمـدى باشـا صفوت فيما أعلم فلاح .. نعم .. هذا الفتى ابن فلاح . وقمت واقفًا .. لم يكن الدرس قد ابتدأ وسألنى جارى : لماذا تقـف ؟ ولم أجب عن سؤاله ... أكل هذا الجمال وأبوه وزير أيضًا وباشا .. إنها فعلا تعطـى فتغـدق .. كنـت كلما دخل ممدوح الفصل أقوم واقفًا .. لم نصبح أصدقاء قط .. ولكنه كان إذا لقينى خارج الكلية حيانى . أما فى الكلية فقد كان يشيح بوجهه كلمـا رآنى أقف له .. وفى يوم دخل فوقفت فقصـد إلى ضاحكًـا وحدثنـى عـن الأستاذ لماذا تأخر .. ومتى سيبدأ الدرس وسألنى إن كانت مذكراتى كاملة ؟ .. ودعانى أن أذهب إلى بيته .. بيت حمـدى باشـا صفـوت .. أنـا .. اعتـذرت ... يف أدخل ؟ .. بماذا أدخل ؟ بحذائى هذا ذى الرقبة الطويلة والقفل الذى ثبه قفل صندوق الملابس عندنـا فـى الدهاشـنة ، أم أدخـل بشـعرى هـذا القافز إلى الهواء ، أم بوجهى هذا الترابى اللون ، أم بحلتى هذه التى تشـبه فـى خطوطها الجلابيب .. لا .. مالى أنا وهذا ؟ .. ولكنى فهمت لمـاذا كلمنـى .. لم أقف بعـد ذلـك ، ولم يكلمنـى هـو مـن بعـد . أيـن ممـدوح الآن ؟ أتـراه يذكرنى .. ماذا يعرف عنى ؟ .. أنا أقرأ اسمه بين الحـين والآخـر فـى الجرائـد ..

أما هو فماذا يعرف عنى .. كنت أحلم أن أصبح مثل حمدى باشا صفوت نفسه .. ولماذا لا . هو فلاح وأنا فلاح .. وهو خريج الحقوق وأنا خريج الحقوق .. صحيح اسمه لا بأس به .. له رنين فخم ، واسمى له صوت كنعير الجاموسة : عليوة .. جاموسة تنعر .. ولكن متى كان الاسم حائلا دون الوزارة ؟ . أو هو على الأقل لا يكون حائلا دون الأحلام .. أخبار ممدوح فى الجرائد لا تفيد شيئًا إلا أنه يعيش ، أما أنا فهو لا يدرى إن كنت أعيش أو لا أعيش . ولكنى لا شك أحيا فى ذاكرته .. ذلك الشاب ذو الشعر القافز الأسمر اللون النحيل الجسم المخطط الملابس ، الذى كان يقف عند دخوله .. لا يذكرنى ولكنه لا يعرف عنى شيئًا من بعد .. ظننت أننى لن أقضى فى الدهاشنة إلا بضعة أعوام ، فإذا الأعوام تتطاول ، ثم تتوقف عن المسير ، وأظل أنا بالدهاشنة .. ترى لو خطبت ابنة رئيس النيابة أيرضى أن يزوجنى ابنته .. إنه يشبه حمدى باشا صفوت .. يشبه صوره التى تنشر فى الجرائد .. والبنت تشبه ممدوح .. أبينهما قرابة ؟ .. لكم أحب بنت البك رئيس النيابة .. سنتان الآن منذ رأيتها وهى تنتظر أباها فى العربة على باب المحكمة .. سنتان وأنا أفكر فيها .. لماذا يرتبط تفكيرى فيها دائمًا بممدوح ؟ . لا أدرى .. أترانى سأقف لها إذا تزوجتها . منذ رأيتها وأنا أعمل فى جنون .. قبلت كل القضايا .. حتى قضية إنعام .. وأصبحت أملك ثروة الآن .. ألف وخمسمائة جنيه ... أيرضى البك رئيس النيابة أن يزوجنى ابنته إذا أنا طلبتها .. ولم لا ؟ .. إن كان مركزى الآن لا يعجبه فهو يستطيع أن يعيننى فى سلك القضاء .. وأصبح مثله .. لماذا لا أتقدم ؟ .. أريد أن أكمل الألفين حتى أصبح مطمئنًا .. هذا العتريس المجرم يخيف الناس . لو أنهم كانوا يخافونه أقل مما يفعلون لحصلت على أتعاب كثيرة ممن يعدو عليهم ولكنه يرعبهم .. كأنما يسحرهم ، يفترسهم ، وهم صامتون حتى لا يقول

الواحد منهم آه .. ذعر هذا العتريس .. لو خفت قبضته بعض الشيء لأكملت الألفين .. وما لى لا أفعل ؟ .. أنا مصروفاتي الشخصية لا تزيد على أجرة المواصلات من هنا إلى المحكمة .. ومكتبي إيجاره بسيط .. وأصبح لى والحمد لله اسم كبير .. أو أصبح لى اسم على أية حال .. لماذا لا يقبلني البك رئيس النيابة لابنته .. لعله يريد لها فتى مثل ممدوح .. ولكن الشكل لا يهم .. لعلى الآن أفهم فى المحاماة أكثر من ممدوح .. ما هى الدعوى البوليسية .. دعاوى كثيرة حفظناها ولم نستخدمها . لعل ممدوح يعرف الدعوى البوليسية ، ولكن لا يعرف كيف يحجز على محصول ، أو كيف يكتب عقد بيع .. إن عقود البيع هذه تفرج علينا فرجًا .. باب رزق لا يقفل .. أكمل الألفين وأتكلم .. يكون عندى المهر والشبكة على الأقل .. إذا تزوجت بنت رئيس النيابة .. بنت رئيس النيابة .. آمال الشباب التى أصبحت هشيما تتجسم مرة أخرى .. هأنذا أراها هناك على طريق المستقبل .. وردية كما كانت وردية ، مضمخة بأريج المجد والعزة والرفاهية .. أرى الأيام القابلة أزاهير من المنى ووديانًا من الأحلام وخمائل من رؤى الشباب الباكر .

(٧)

عجيب أن تكسر المرآة فتصبح على هذه الصورة .. دائرة فى الوسط تتشعب منها الشدوخ فى اتجاهات شتى ، فإذا هى مرايا شتى ، وإذا أنا فيها شتى صور وشتى آدميين .. أعرفهم جميعًا ولا أعرف أحدًا منهم .. أنا هم كلهم ، ولست منهم أجمعين فى شىء .. هذا .. هنا فى هذا الجانب الأيمن .. البعيد هذا عتريس الطفل .. هاهو ذا يضحك فى براءة ساذجة .. ويجب أن يضحك ما استطاع إلى ذلك من سبيل .. ويجلس إلى الشيخ فى المدرس ، ويجب أن يسمع القرآن ولا يجب أن يحفظه .. صعب الحفظ ..

وهو بنفسه عتريس الذى كان يمر بمجامع القرية فيسخر ويضحك ويجرى خائفًا ، فلا يعدو الخوف على هذه الابتسامة الساذجة المنشرحة فتظل على شفتيه .. لم تقض الأيام على عتريس هذا الذى يحب الضحك الساذج . هاهو ذا فى المرآة اليمنى .. هناك فى الجانب البعيد إنى أعرفه ولا أكاد أعرفه .. إنه أنا .. وأين منه أنا .. إلى جانبه ذلك الفتى الذى كان يخرج مع جده فى سهرات الليل المحفوفة بالمخاطر .. وكان يخاف ولكن جده مازال به حتى أمات الخوف فى نفسه .. أصبح لا يخاف .. ألا أخاف ؟ .. لا يبدو منى الخوف ، ولكن ألا أخاف ؟ .. المهم ألا يبدو منى الخوف .. وأصبحت أخرج على رأس الرجال ويظل جدى فى البيت وأصبحت ذلك العتريس .. هل أنا كما يصفون ؟ أنا هنا فى هذه المرآة ماذا أبدو ـ هل أعرف هذا الذى يبدو لى أم أنا لا أعرفه . وأما هذا الذى يليه فى الصورة فيخيل إلى أنى أعرفه .. أو أنا أحب أن أعرفه .. ذلك الشاب الذى يحب الصوت الجميل والشكل الجميل والمرح ، ذلك الشاب الذى يولع بالجمال أينما يكن هذا الجمال . أحب الصوت الحلو الذى يتغنى به المغنى كأنه صلة السماء بالأرض .. وما لى بهذه السماء ؟ . هذا الشاب يحب السماء .. ويحب فؤادة .. لأن فؤادة هى الجمال .. أشبه ما تكون بعروس أرسلتها الجنة إلى الأرض لتغرى الناس أن يصلوا ويزكوا ويمتنعوا عن .. عن ماذا .. لا جنة لى فى السماء .. أكثير على أن تكون لى جنة فى الأرض .. هذا الفتى الذى يحب .. أنا أحبه .. أهو أنا .. لكم أحب أن أكونه .. أما ذلك الذى بجانبه .. هنا فى المرآة الوسطى .. كبرى المرايا جميعًا .. هذا الرجل أوشك أن أكون على ثقة من معرفتى به .. هذا الشارب الذى يحتفى به ولا يجعله كبيرًا يعدو على وجهه ، ولا صغيرًا يعدو على هيبته . وهاتان العينان الحمراوان العميقتان الجريئتان ، وهذه الجبهة الواثقة ، وهذا الفم القوى

وهذا الذقن البارز ، وهذا الأنف الذى ينبعث إلى أمام كأنه سهم القدر .. هذا الرجل فى هذه المرآة هو أنا .. أهو حقيقة أنا ؟ .. أفضل هذا الذى إلى جانبه من الناحية الأخرى .. الذى يدمع إن سمع دعاء طيبًا ، ويرف قلبه إن رأى حمامة تدف على زوجها .. أو هذا الذى يليه الذى لا يزال يقبل يد والده .. من أنا فى هؤلاء جميعًا .. ومن هؤلاء جميعًا ؟ . اجتمعوا وما اجتمعوا ، وتنافروا وما ابتعد واحد منهم عن الآخر . أهى المرآة جمعتهم وفرقتهم ، أم ترانى أنا جمعتهم ونفرت كلا منهم عن الآخر .. أم أن هناك قوة أقوى من المرآة ومنى ومن الحياة هى وحدها التى تملك أن تجمع الناس وتنفر ما بين بعضهم وبعض ؟ أهذه القوة هى التى جعلتنى أحب فؤادة .. لماذا يدوى اسمها دائمًا فى أنحاء جسمى كأنما هو صوت من الجانب الميمون من الحياة ؟ . أى شىء جعلنى لا أفكر إلا فى حبها ؟ . ولماذا التذ شعورى بحبها ولا أتزوجها ؟ .. لماذا انتظرت حتى اليوم لم أتزوجها ؟ .. إن هى إلا إشارة .. كلمة أقولها فلا يشرق صبح آخر إلا وتكون فؤادة زوجتى .. ولكنى لسبب أجهله أحب أن أنتظر وأن أسمع اسمها مدويًا فى كيانى وفى حياتى .. ولكن إلى متى أنتظر ؟ . من أين يأتى هذا الحب ؟ . ولماذا يسيطر على وأحب منه هذه السيطرة ، أنا الذى لا أطيق أن أسمع رأيًا يخالف ما أرى ؟ . كيف ألين لهذا الحب وأتركه يفرض على فرضًا بهذه القوة وهذا لجبروت ؟ .. أى أنا فى هؤلاء يحب فؤادة ؟ . هذا العاتى الذى يتصدر آة .. أتحبها ؟ . ما هذا الوميض فى عينيك ؟ ماله أصبح نورًا وكان نارًا .. ما محك قد كستها إشعاعات من الطيبة وغشيتها غلالات من الأحلام ؟ .

ت أيها الأنا الذى بجانبه ، وأنت الآخر ، وأنت وكل أنا فى هؤلاء .. ما الحنين قد ألقى على وجوهكم جميعًا ؟ ليس واحدًا فىّ الذى يحبها ، ما كل أنا فىّ يحبها ويحن إليها ... ما هذه الوجوه الجديدة التى تزحم

المرآة ؟ . وجوه أعرفها وتختلط بوجوهي فلا أدرى أين صورى بين صورهم . هذا الشيخ إسماعيل الصفورى أصبح ضمن عصابتي بعد أن طرده رجال الدين من بيئتهم .. شيخ هو ولكن قلبه أخضر يحب النساء والحشيش ، ولم يكن ذا مال ، فسرق حصير الجامع الذى كان يخطب فيه ، وقبض عليه وخرج من السجن لينضم إلى العصابة .. فما بقى له من الجانب الآخر من الحياة شيء .. وهذا الذى بجانبه عبد المعطى العجل وكيل الدائرة الذى اختلس من العهدة فمر بالسجن لينضم إلَىّ .. يمسك حساباتي ولا يمسك عهدتي .. وهذا الثالث عثمان شاكر وكيل المحامى زوّر فى المحكمة توقيع أحد الموكلين وتسلم عنه المبلغ الذى حكم له به ، وأنفق المبلغ عنه أيضًا ، وخرج من السجن ليكون ضمن مجلس الشورى فى مملكتى .. مملكة مكتملة .. ينظرون إلى المرآة .. إلى صورة من ينظرون ؟ . إلى صورهم ؟ أم إلى صورى .. إنهم الفئة الممتازة فى العصابة ، ولكن لا صوت لهم بجانب الهمس الذى أهمس به .. صدى هم وأنا الصوت فلئن تختلط صورهم بصورى فلا غرو ، فما هم إلا شعاع منى وما أصواتهم إلا رنين كلامى يريدون أن يقولوا شيئًا ولكنهم يخافون صمتى كما تعودوا أن يخافوا كلامى . لا يبدءون حديثًا لا أبدأه .. لماذا يحلو لى أن ألتذ خوفهم هذا ؟ .. لماذا سكت طوال هذه الفترة ؟ .. لم يبن الضيق على وجه واحد منهم ، بل لعلهم إلى السعادة أقرب .. أليسوا هم وحدهم بين أفراد العصابة جميعًا الذين أسمح لهم بالدخول إلى بغير حرج ؟ . مكانة يعتزون بها .. نعم إنهم إلى السعادة أقرب .

ـ هيه .. خيرًا يا رجال ؟ .. أعرف ما تريدون عمله الليلة . هل الرجال مستعدون ؟ . على بركة اللّه . .

(٨)

أحبها منذ عرفت الحياة .. مع الومضات الأولى للوعي .. مع النبضات الباكرة من الذكرى .. منذ لا أذكر متى .. وجدت حبها معى منذ تبينت أن اسمى طلعت وأن اسمها فؤادة .. ولم أكن فى حاجة أن أقول لها أحبك ، وإن كنت قد همست بها فلأستمتع بالهمس .. حلوة هى الهمسة بين حبيبين .. بلورة لحديث من العيون .. وتجسيد لشعاعات تحيط بالحبيبين لا يدريان ما مصدرها .. مغلفة هى بالحب فؤادة .. هى لى .. وأبى لا يرفض ، فهو يحب أن أتزوج فؤادة ، بل لعله يتوق إلى هذا الزواج فهو دائمًا يتمنى أن تتوثق صلاتى بالقرية ، ولم لا ؟ أنا منها ولا عيش لى إلا فيها .. ألم أحصل على أكبر الشهادات ، ومع ذلك يريدنى أبى أن أعمل فى القرية .. عروقى ضاربة فيها .. منها أبى ومنها جدى ومنها كل من أعرفه من جدودى .. عاشوا بها وماتوا فيها فلماذا لا أمكن لهذه العروق أن تتوغل فى أرضها ؟ . لقد قال لى أبى يومًا لكم أحب أن تتزوج من الدهاشنة .. ولم تدهش أمى بل لعلها رحبت .. فأنا أستطيع إذن أن أتزوج من فؤادة .. بل إنها فى الواقع زوجتى بما بيننا من حب .. ولكنى أحب أن أسألها .. لماذا لا أهمس لها وتهمس لى .. لا .. هناك أهم من هذا .. هناك الشىء الأساسى فى الحياة .. أريدها هى أن تختارنى .. لا بالابتسامة ولا بالنظرة ولا بما أعلمه من أنها تحبنى ، ولكن يجب أن توافق على هذا الزواج موافقة صريحة لا شك فيها .. بإرادة حرة لا سلطان عليها فيها إلا ما تمليه خوالج نفسها هى .. ما تريده فى البعيد البعيد من أعماقها دون أن يكون لرأى أبيها أو أمها دخل فى ذلك .. لا أريدها أن تتزوجنى لأن أباها يريدها أن تتزوجنى .. إرادة خالصة بعيدة عن أى مؤثرات إلا رأيها .. أريد أن أنال موافقتها نابعة من مشاعرها هى وعقلها هى .. أريدها وحدها التى تقرر

هذا الزواج .. هكذا أريد هذا الزواج ، ولن أناله إلا على هـذه الصـورة ، ولن يكون إلا هكذا .. فليس بين من عرفت من الناس أحدًا يقدس الحريـة مثلما تقدسها فؤادة .. لماذا أشعر بحنين إليها مهما تكن قريبة منى ؟ .. هذا الحنين هو الحب .. أنـا فـى شـوق إليهـا دائـم لا يرتـوى .. أحسـه مشـبوبًا عاصفًا وأحسه رفيقًا كغناء النسيم ، ناعمًا كوسوسة الهواء يتخلـل أعـراف الشجر ، وأحسه يقيدنى كمنظر أخاذ يمسك بتلابيب النفس ، وأحسه حرًا منطلقًـا كمـلاك منطلـق فـى الفضـاء الرحـب .. لكـم تحـب فـؤادة الحريـة والعدل .

فى الملعب والأطفال يلعبون الكرة وأنا بينهم ، وهنـاك رجـل واقـف لا أذكر من كان ، يحاول أن يعطينى حقًـا لا يتيحـه لى قـانون اللعـب . وقبـل الأطفال فقد كان الملعب ملعبى ، وكانت الكرة كرتـى ، ولكـن فؤادة قـالت : لا .. لا حازمة .. أنت تلعب مثلنا فيجب أن ينفذ عليك ما ينفذ على كـل اللاعبين الآخرين ، ولكنك أنت من فريقى وبهذا التجاوز الطفيف نكسـب نحن .. كسبًا لا أرضاه لنفسى ولا أرضاه لك ولا أرضاه للحق .. ليس هذا عدلا .. أنت حرة .. اتركى الملعب .. اتركى الملعب راضية .. ألهـذا الحـد ؟ .. نعم .. إما أن نكون أحرارًا فـى الملعـب أو لاداعـى للعـب .. مـالهذا وللحريـة ؟ الحرية هـى المسـاواة . امتيـازك عـن إخوانـك عبوديـة لهـم .. إذن فـابق .. ويصبح مثلك مثل سائر اللاعبين .. وأصبح مثلى مثل سائر اللاعبين ..

وحين كبرت قليلا وأراد أبوها ألا تذهـب إلى المدرسـة ، رفضـت الأمـر وأضربت عن الطعام .. وقال أبوها :

ــ موتى إذا شئت ، ولكنك لن تذهبى إلى المدرسة .

ــ أموت لأنك تخنق حريتى ، وأنا لا أطيق العيش بلا حرية .

كبرت ، ولا يجوز أن تذهبى إلى المدرسة .

ـ كبرت ، ولهذا يجب أن أذهب إلى المدرسة .

ـ وتخرجين وأنت قد أصبحت شابة ؟

ـ وهل تنوى أن تحبسني إذا بقيت فى البيت ؟

ـ لا ، ولكن القرية ليست مثل المدينة .

ـ إنه أنا فى القرية ، وهى أنا فى المدينة .. أيهما أحسن أن أبقى فى القرية لأصبح حكاية ضمن حكاياتها التى لا تنتهى ، أم أذهب إلى المدرسة وأستكمل تعليمى إلى أقصى حد ممكن .

ـ لن تذهبى .

ـ وأنا لن آكل .

ـ وستأكلين .

ـ أما هذا يا أبى فأنت لا تملكه .. أنت حر أن تمنعنى عن المدرسة لأنك أبى . أما طعامى فأنا حرة فى أن أتناوله أو لا أتناوله لأنه طعامى أنا ..

ـ أنت حرة .

ـ نعم حرة .

وأضربت عن الطعام أيامًا لم تطل ، فقد أشفق أبوها عليها وذهبت إلى المدرسة .. حرة هى .. تعبد الحرية وتعيش بها .. إنها هى نفسها ما هى إلا نسمة من نسمات الحرية ، وشعاع من ضيائها ، ونغمة عميقة من موسيقاها .

وانتظرها فى يومه هذا . ووقف دونها صامتًا ، ونظرت إليه وابتسامة مشرقة على وجهها . وما لبث أن قال :

ـ أتقبلينني زوجًا ؟

وصمتت لحظات فقال :

ـ لابد أن أسمع نعم حتى أتقدم .

وضحكت وهى تقول :

ـ نعم .

ـ بمجرد عودة أبى من السفر سنأتى إليك ..

(٩)

شيخ أنت مهيب يحترمك الجميع فى القرية كلها .. فحيثما مررت يقف لك الجالسون ويحييك الواقفون ، ملء عيونهم إجلال واحترام ..

ويتوقف الأطفال عن اللعب إن مررت بهم ، ويضع النسوة خمرهن على منتصف وجوههن إذا التقين بك ، ويرحب بك أعيان القرية فى مجالسهم .. شيخ مهيب .. جليل فارع القامة عريض المنكبين نضر السمات أنت ، وجيه .. ولكن ما أنت وهذا جميعه ؟ .. ما مكانك من نفسك ؟ .. لماذا لم تستطع فى يوم من الأيام أن تحترم نفسك فى داخل نفسك ؟ .. ساخطة هى نفسك عليك لا ترضى بك ولا ترضيك ، الناس يحترمون هذه الأفدنة العشرة التى ورثتها عن أبيك ، وهذه الخمسة التى اشتريتها وهم لا يدرون كيف اشتريتها ، فلو ألقيت المقادير إليك ما اشتريت فى حياتك شيئًا .. متى قررت شيئًا وأنفذته ؟ .. لو لم تكن زوجتك رتيبة ما اشتريت شيئا .. هكذا أنت منذ وجدت فى هذه الدنيا .. ذهبت إلى الأزهر فلم تستطع أن تكمل علومه وتعثرت دون شهادة العالمية فيه سنوات وسنوات ، وكنت كلما أزمعت أن تذاكر مالت بك نفسك عن المذاكرة ، ثم أخذت تلومك وتلقى عليك ألوان التأنيب والهزء والسخرية كأنما فى نفسك نفسان : إحداهما تلقى بك إلى مهاوى التردد والكسل والخنوع والضعف ، والأخرى تلقى عليك ألوان الهزء والتأنيب والسخرية حتى ما استطعت ــ وقد جاوزت الخامسة والخمسين ــ أن تعمل عملا واحدًا ترضى عنه . حتى زواجك لم يكن بيدك ، فلو لم يخطرك أبوك أنه قد خطب لك ، وقرأ الفاتحة ما تزوجت

حتى يومك هذا . وحين تزوجت من رتيبة تولت هي جميع شأنك . فهي الآمرة الناهية في البيت والغيط . وتكتفي أنت بالملبس الأنيق والمشية الوقور المتئدة واحترام الناس وإقبالهم .

أردت .. نعم أردت ولكن الإرادة كانت تقف بك دائمًا عند الرغبة ولا تعدوها إلى التنفيذ .. أردت أن تزوج ابنتك صابحة من ابن أخيك عمران ، ولكن رتيبة قالت لا ، فكانت لا .. حاولت يومذاك أن تصر ، ولكنك تعرف أن إصرارك لم يكن في يوم ما ذا قيمة ، وزوجتك أيضًا تعرف أن لا قيمة لإصرارك ولا لرأيك ، وتزوجت صابحة من ابن عم رتيبة ، وقالت إحدى نفسيك : إنه غني ، وقالت النفس الأخرى أنت ضعيف .

أولادك لا يقدمون لك من الاحترام إلا وقفة إن أقبلت عليهم ، أو قبلة على اليد إن هم صافحوك ، ولكنك ترى في عيونهم أن الوقفة أو القبلة إنما هما علامات بنوة لا علامات احترام . أما سمعت مسعود وهو يقول لصابحة :

ـ أبي .. وهل بيده شيء ؟ الأمر كله بيد أمك .

وعبد المنعم يوم أراد أن يذهب إلى الأزهر هل قال لك شيئًا ؟ .. أبدًا ، لقد قال لأمه وجهز لسفره وقبل يدك وهو في سبيله إلى القاهرة دون أن يبادلك الحديث عن شئون مسكنه ومصروفاته في القاهرة ، لقد أعد كل شيء مع أمه .. وسعيد الذي يزرع الأرض هل قال لك في يوم من الأيام ماذا أنتجت الأرض من محصول ، أو كم نفرًا يستأجر ، أو لمن باع القطن ؟ .. أبدًا .. أبدًا كل حديثه مع أمه . أما أنت فلا وجود لك . ولكن الناس يقفون لك والأطفال يتوقفون عن اللعب والنسوة يلقين الخُمُرَ على منتصف وجوههن .

وأنت مدعو فى كل فرح فى القرية ، وصاحب الفرح يحب دائمًا أن يشرف بأنك شاهد فى العقد .. شاهد فى العقد .. أنت شاهد فى هذه الحياة جميعًا ثم لا شىء آخر .. أنت عند زوجتك مهم لتنجب لها أطفالا وتضع تحت يدها خمسة عشر فدانًا تديرها .. وأنت عند أولادك مهم ليقولوا لك يا آبا ، ولينتسبوا إلى أب يقف له الناس ، ويتوقف الأطفال عن اللعب ، وتلقى له النسوة الخُمُرَ على منتصف وجوههن ؛ وليكون شاهدًا فى عقود الزواج فى القرية .. شاهد أنت فى الحياة لو سألت يومًا ما وظيفتك ؟ أتجد شيئًا أكثر مناسبة بك من أن تقول شاهد .. الوظيفة شاهد .. شاهد فى الحياة . ولكن نفسك غير راضية عنك ! لماذا لا تقف لك نفسك كما يقف الرجال ، ولماذا لا تتوقف عن اللعب بك ، كما يفعل الأطفال ، أو لماذا لا تلقى خمارًا على منتصف وجهها كما تفعل النسوة .. على النصف الأسفل من الوجه حيث الفم ليت نفسك تلقى هذا الخمار على فمها فتسكت عنك وتتركك تنعم بهذا الاحترام الذى تلاقيك به القرية جميعًا .. ليت القرية جميعها لا تحترمنى وأظفر بالاحترام من نفسى هذه وحدها .. ما أجمل أن أرضى أنا عن نفسى .. لا يهمنى من بعد ذلك شىء .. مجرد نفسى .. داخلى .. أريد داخلى هذا أن يرضى عنى . أهذا كثير ؟ ومع ذلك فهو بالنسبة لى المستحيل . أو لعل المستحيل يصبح ممكنًا ، ولا أنال هذا الرضى من نفسى .. كيف .. كيف ؟ .. أأستطيع بعد هذا العمر أن أقول :

ـ يارتيبة منذ اليوم لا شأن لك بالأرض . أنا الذى سأتولاها .

فتبتسم لى ابتسامتها التى كانت تهدهد بها أطفالنا حين هم صغار وتقول :

ـ وماله يا شيخ بسيونى .. أنت الكل فى الكل .. كلنا نعيش بنفسك .

ثم تمضى فى سبيلها كما كانت ، وكأنى لم أقل شيئًا . وأسكت أنا راضيًا . فإنى أعلم لو توليت شأن الأرض لفشلت فشلا ذريعًا ماحقًا . ماذا أعرف أنا عن الأرض ؟ بل ماذا أعرف عن أى شىء حتى أمشاج العلوم التى اختطفتها من الأزهر ؟ أضعتها فى طريق الحياة . نعم أستطيع أيضًا أن أقول لسعيد :

ـ يا سعيد اجعل كلامك عن الأرض معى أنا .. لا شأن لأمك به وسيقول :

ـ وماله يا أبا أمرك .

ثم لن يسألنى بعدها فى شىء أبدًا .. فهو يعلم جهلى .. أأستطيع أن أعرف كم جوالا من السباخ يجب أن توضع فى فدان القطن ، أو كم نفرًا يكفون لخف القطن أو تنقيته أو جمعه أو أى شىء .. لا شىء إلا مزقًا من العلوم فى الأزهر ، وتبعثرت منى على الطريق حتى لم يبق شىء .. ومع ذلك ها هم أولاء الرجال يقفون .. والأطفال ينتظرون أن أمر حتى يواصلوا لعبهم ، وها هى ذى فتاة جميلة تلقى الخمار على وجهها ريثما تمر بى ، ثم ها هى ذى تعفى وجهها منه بعد أن بعدت عنى .

(١٠)

هنداوى أفندى عبد المجيد ناظر المدرسة الإلزامية فى القرية ، وهو يملك بها ثمانية أفدنة ، وهو رجل قصير ، فهو يلبس طربوشًا طويلا ، وهو نحيف ، فهو يلبس ملابس فضفاضة ، فالجاكتة ذات صفين دائمًا ، وهى متسعة يلبسها فى الصباح مع البنطلون ، ويلبسها بعد الظهيرة وتحتها الجلباب . كان جالسًا فى غرفته بالمدرسة حين دخل إليه بخيت أفندى عبد الحفيظ :

ـ صباح الخير يا حضرة الناظر .

ـ أهلا بخيت أفندى .. تأخرت اليوم عن الحصة الأولى .

ـ أنا أجمع القطن ، وقد مررت بالغيط أرى الأنفار .

ـ هذا كلام لا ينفع يا بخيت أفندى ، يجب أن نؤدى وظيفتنا أولا ، ثم نلتفت إلى الأشياء الأخرى .. إنك تعرف أننى رجل دقيق .

ـ الحقيقة يا حضرة الناظر أن الأمر الذى أخرنى ليس الجمع فى غيطى أنا ، وإنما غيط حضرتك .

ـ ماذا به ؟

ـ القطن خرج عند حضرتك ، ولابد من جمعه .

ـ أترى هذا ؟ .

ـ نعم لابد أن تبيت على الأنفار من الليلة ليبدأ الجمع من الغد .

ـ لقد مررت بالقطن البارحة وهو فعلا يستحق الجمع . ولكن لا أعرف ماذا أفعل .. أترك المدرسة ؟

ـ ولماذا تتركها ؟

ـ وكيف أجمع القطن إذن ؟

ـ مثل كل سنة .

ـ أنت تعرف يا بخيت أفندى أننى رجل دقيق . وأخشى أن يقول واحد شيئًا .. أنا رجل دقيق كما تعرف .

ـ الدقيق يا حضرة الناظر من يعرف مصلحته .

ـ يعنى .

ـ يعنى أشرف أنا على الجمع فى أرضى وأرضك وتعطى حصصى لعبد اللّه أفندى وهو رجل طيب لن يقول شيئًا ..

ـ كان يجب أن أجمع القطن قبل أن تبدأ الدراسة .

ـ لو كنت فعلت لتركت لوزًا كثيرًا دون جمع ولسرقه الناس .

ـ إذن ؟ ..

ـ لابد مما ليس منه بد .

وقبل أن يتم الحديث يدخل إلى حجرة الناظر عوضين العجمى .

ـ يا عم هنداوى أفندى عملت علىّ غرامة .

ـ طبعًا وماذا كنت تنتظر ؟

ـ الولد يجمع القطن معى .

ـ أنا لا شأن لى .. أنا أنفذ أوامر الحكومة .

ـ يا عم هنداوى أفندى نحن ناس فقراء لا نتحمل الغرامة .

ـ وأنا رجل دقيق لابد أن أنفذ التعليمات .

ـ ومن أين أدفعها ؟

ـ هذا ليس شأنى ياسى عوضين .. هذا شأنك أنت .

ـ لماذا نحن بالذات الذين تجعلنا ندفع الغرامة .. هذا ظلم .

ـ أنا ظالم ياسى عوضين .. أنت تشتمنى أثناء تأدية وظيفتى .. أنا أودى بك فى داهية .

ـ يا راجل اتق اللّه .

ـ إننى أتقى اللّه فى كل شىء .. لابد أن أنفذ أوامـر الحكومـة .. ماذا أقول للمفتش إذا جاء ولم يجد ابنك ، ولم يجدنى قد حررت له محضرًا ؟

ـ وماذا قلت للمفتش عن ابن عبد العال أبو السيد .

ـ إنه يعمل فى أرض البك .

ـ البك غنى يستطيع أن يدفع الغرامة . أما أنا فرجل فقير .

ـ وأنا ماذا أعمل ؟

ـ كما عملت مع ابن عبد العال .

ـ لا ياحبيبى .. أنا رجل دقيق .

ـ ولماذا لم تكن دقيقًا مع ابن عبد العال .

ـ ابن عبد العال ابن عبد العال .. أنا حر .

ـ أنت حر نعم ، ولكن لا تغرمنى .

ـ لا تعطلنى أنت عن عملى .

ـ الغرامة ياعم هنداوى أنا فى عرضك .. كلمه ياسى بخيت أفندى .

ـ أنت الغلطان يا عوضين .

ـ أنا الغلطان يا بخيت أفندى ؟!

ـ حضرة الناظر أرسل أمس يشترى منك بيضًا فتبيع له بسعر السوق ؟.

ـ وماذا فى هذا ياسى بخيت أفندى ؟

ـ لاحق لك يابخيت أفندى .. ما دخل هذا فى الغرامة ؟

ـ طبعا يا حضرة الناظر هذا لا شأن له بالغرامة إنما كان عليه أن يراعى .

ـ لا .. أبدًا واللّه .. أنا لا أقبل .. أنا لا أقبل هذا أبدًا .

ـ تقبل ماذا يا حضرة الناظر ؟

ـ اذهب أنت يا عوضين .

ـ والغرامة ياسى بخيت أفندى .

ـ أرسل بيضتين بقية بيض البارحة .

ـ أنا لا أقبل أبدًا .

ـ لا عليك يا حضرة الناظر .. عوضين رجل طيب .

ـ ربنا يبقيك ياسى بخيت أفندى .

ـ أرسل البيضتين .

ـ أنا لا أقبل ...

ـ سيأتى الولد مهدى بالبيضتين .

ـ مرة ثانية خل عندك نظر .

ـ أمرك يا حضرة الناظر .

ـ مع السلامة يا عوضين .

ـ والنبى ياسى بخيت أفندى تترك الولد يجمع معى القراطين فى هذين اليومين .

ـ ويجمع معك القراطين ياسى عوضين .. مع السلامة .. توكل على اللّه .

ـ السلام عليكم .

ويخرج عوضين .

ـ إذن فستجمع لى القطن يا بخيت أفندى .

ـ مثل كل سنة يا حضرة الناظر .

ـ أنت تعرف يا بخيت أفندى أنا رجل ..

ـ دقيق يا حضرة الناظر لن ينقص من القطن فص واحد .. توكل على اللّه يا حضرة الناظر .

(١١)

كان حافظ أفندى خالد جالسًا فى بيته فى الموهن الأخير من الليل مع زوجته فاطمة وابنته فؤادة ، وكان حافظ قد فرغ من الصلاة ، وكانت فاطمة تصلى ركعات للّه لا توجبهن فريضة ولا سنة . وكانت فؤادة تقرأ فى كتاب كبير فى يدها ويسألها أبوها :

ـ ماذا تقرئين يا فؤادة ؟

ـ حكاية عجيبة يا أبى .

ـ عم تروى .

ـ عن مقتل الحسن بن على .

ـ كيف قتل ؟

ـ حكاية لا يصدقها العقل .

ـ احكيها لى .

ــ أنا يا أبى لا أصدقها .

ــ قولى أولا ونبحث عن معقوليتها بعد ذلك .

ــ أرسل معاوية إلى زوجة الحسن واتفق معها على أن يعطيها مبلغًا كبيرًا من المال ويزوجها ابنه يزيد إذا قتلت الحسن .

ــ أعوذ باللّٰه .

ــ وسقته السم وأحس به يسرى فى جسده ، ثم أحس به يفتك به ، ثم أحاط به ألم قاتل حتى لقد كان يقول لفظت بعضًا من كبدى ، وكنت أقلبه بعود فى يدى وزوجته تشهد وكأنها لم تفعل شيئًا .

ومات الحسن وذهبت الزوجة إلى معاوية لتنال الجائزة التى وعدها بها .. زواج يزيد والمال الوفير .

ــ وهل نفذ معاوية وعده ؟

ــ بعض وعده .

ــ كيف ؟

ــ قال لها : أما المال فهو لك . وأما يزيد فإنا نخاف أن تفعلى به مثلما فعلت بزوجك .

ــ لقد نالت جزاءها .

ــ إن كانت الحكاية صحيحة ، فهى لم تنل جزاءها أبدًا .. كان يجب أن تقتل مئات المرات .. إنها زوجة قتلت زوجها .. لقد أعطته السم بيد لا يشك فى ولائها .. يد زوجته .. إنها روحه الثانية .. حياته .. أتعرف يا أبى لماذا حدثت هذه الجريمة ؟ .

ــ لأن الزوجة كانت امرأة مجرمة .

ــ هناك سبب أهم من ذلك .. لم يكن زواجها بالحسن عن حب .. كان أغلب الزواج فى ذلك الحين يتم عن غير حب .

ـ ومع ذلك لم تقتل كثير من النساء أزواجهن .

ـ لأنهن لم يتعرضن لمثل إغراء معاوية .. من يدرى ماذا كن يفعلن إذا تعرضن لهذا الإغراء ؟

ـ أكن يقتلن أزواجهن ؟

ـ مادام الزواج بلا حب فلا أحد يدرى ماذا يحدث .

قالت فاطمة بعد أن سلمت تسليمتين :

ـ فيم تتحدثان ؟

ـ ألم تسمعى ؟

ـ كنت أصلى .

ـ وأذناك .. أين كانتا ؟

ـ أنت تعرف أننى حين أصلى لا أسمع شيئًا .

ـ احكى لها الحكاية يا فؤادة .

ـ ثانية .

ـ كانت تصلى .

وقبل أن تبدأ فؤادة قصتها سمع ثلاثتهم ضجيجًا متخافتًا خارج الباب أعقبه طرق ، وقال حافظ :

ـ من ؟

وجاء صوت قوى ليس مرتفعًا :

ـ افتح .

وقال حافظ خائفًا :

ـ من ؟

وجاء الصوت :

ـ عتريس .

وأعاد حافظ الاسم ذاهلا :

ـ عتريس ؟ !

وجاء الصوت مرة أخرى يحمل نفس النبرة :

ـ افتح .

وقال حافظ لزوجه وابنته :

ـ ادخلا أنتما .

وحين دخلتا وأغلق دونهما الباب ، ذهب إلى باب البيت ففتحه ، ودخل عتريس بعد أن قال لرفقة معه لم يتبين حافظ عددهم :

ـ ابقوا أنتم هنا .

وأقفل عتريس باب البيت الخارجى ، وقبل أن يقعد سأله حافظ هالعًا :

ـ ماذا يا عتريس ؟

ـ لا تخف يا عم حافظ .. اقعد .

ـ هل هناك شيء ؟

ـ أنا فى بيتك .. أهكذا تستقبل ضيفًا فى بيتك ؟

وقعد الرجلان وحافظ يشعر بقلبه يكاد يقفز من صدره ، فهو وجيب قوى ، وهو هلع وخوف وتوجس ، وراح يلصق الكلمات بعضها ببعض حتى قال آخر الأمر :

ـ مرحبًا بك فى بيتى يا عتريس .

ـ إنها كلمة لا تزيد .

وقال حافظ فى نفسه ، وهل المصائب إلا كلمة لا تزيد ، ومرة أخرى راح يلصق الكلمات بعضها ببعض :

ـ أنا تحت أمرك .

وقال عتريس في هدوء وقد سرى في صوته حنين ونعومة لم يستطع حافظ أن يتبينهما :

ــ فؤادة .

وقفز حافظ عن كرسيه :

ــ مالها ؟

ــ أريد أن أتزوجها .

وظل حافظ واقفًا واجمًا فترة طويلة ، حتى قال عتريس مرة أخرى :

ــ ماذا قلت ؟

وظل حافظ صامتًا مرة أخرى ، وعاد صوت عتريس إلى خشونته الطبيعية وهو يقول :

ــ ماذا قلت يا عم حافظ ؟

وراح حافظ يرتعش بالألفاظ وهو يقول :

ــ ولكن فؤادة .. فؤادة ..

وقال عتريس :

ــ مالها فؤادة ؟

ــ لا أظنها تقبل .. لا .. لا أظنها .. لا أظن ..

وقال عتريس في هدوء عنيف بارد قاس :

ــ يظهر أنك لا تتبين الأمر على حقيقته .. أنا عتريس ... عتريس .. أتفهم .. وأطلب منك ابنتك فؤادة لأتزوجها :. أتريد أن أضع لك الأمر بصورة أخرى .. عتريس حين يريد لابد أن يصل إلى ما يريد .. أنت عندك أرض .. وفي الأرض قطن الآن وأرز ، وأحيانًا يكون في الأرض قمح ... وعندك ساقية .. وعندك بهائم .. وعندك أيضًا ــ عند اللزوم ــ زوجتك

وعندك ـ عند اللزوم أيضًا ـ ابنتك فؤادة نفسها وأنا عتريس .. لعل الأمور واضحة فى ذهنك الآن .

وفهم حافظ كل الفهم ولكنه عاد يقول :

ـ ألا تسألها ؟

ـ هذا شأنك .. تسألها أو تأمرها .. اليوم السبت كتب الكتاب الخميس القادم .

ـ ولكن ..

ـ أفهمت ؟

ـ نعم .

وخرج عتريس وأقفل الباب من خلفه وقعد حافظ متهالكًا وراح ينظر من حوله .. دقائق قليلة تم فيها هذا جميعه .. أهذا معقول .. أيمكن أن يتسع وقت العالم كله ليتم فيه هذا الانقلاب فى حياته ولكنه تم فى دقائق .. الحجرة خالية .. صامتة .. كأن شيئًا لم يحدث .. أحدث شىء .. هل كان عتريس هنا ... عتريس بأكمله بجميعه هنا .. فى هذه الحجرة .. أقال ما قال فعلا .. كيف .. كيف تستطيع الدقائق هذه الدقائق الهينة التى يقطعها الزمن فى احتقار واستهانة كيف .. كيف تستطيع أن تقلب حياتى كلها بهذا اليسر ؟ .. ما هذا الصمت إذن ؟ .. أين الضجيج الذى كان يجب أن يملأ الدنيا من حولى .. ما هذا السكون .. ما هذا الصمت .. أينقض عتريس على حياتى جميعها يختطف معنى هذه الحياة ؟ . ثم يهوم الصمت ويشمل الكون هذا السكون البارد فى غير اهتمام كأن شيئًا لم يحدث ... لقد هدد .. وما كان فى حاجة إلى تهديد .. إن طلبه وحده يحمل كل معانى التهديد . وفجأة يفتح باب الحجرة وتأتى فاطمة وفؤادة وتجلسان

وتنظـران إلى حـافظ ولا تسـألانه . وينظـر إليهمـا طويـلا طويـلا و شاخصتان إليه بلا حديث . وأخيرًا يقول حافظ :

ـ فؤادة .

وتدق فاطمة صدرها صارخة :

ـ ماذا ؟

وتقول فؤادة :

ـ ماذا يا أبى ؟

ويعود حافظ قائلا بنفس النغمة الحانية الواجفة :

ـ فؤادة ...

وتقول فؤادة :

ـ نعم يا أبى .

ويقول حافظ :

ـ إنه يريد فؤادة .

وتقول فاطمة صارخة حازمة :

ـ لا .. لا .. أبدًا .

وتقول فؤادة محاولة أن تظهر عدم مبالاتها :

ـ ماذا يريد منى ؟

ويقول حافظ :

ـ يريد أن يتزوجك .

وتعود فاطمة إلى صراخها :

ـ لا ... لا ....

وتقول فؤادة بهدوء وثبات :

ـ لا تخافى يا أمى .. لن يكون هذا أبدًا .

ويقول حافظ فى تداع :

ـ وستتزوجينه .

وتقول فاطمة :

ـ ماذا تقول ؟

وتقول فؤادة فى هدوئها لا تزال :

ـ لن يكون هذا .

ويقول حافظ :

ـ يوم الخميس القادم .

وتقول فاطمة :

ـ هل تعى ما تقول يا حافظ ؟

ـ لقد هدد بكل شيء .

وتقول فؤادة فى غير مبالاة :

ـ ليهدد ما شاء .. لن أتزوجه .

(١٢)

كان الصباح مشرقًا وضاحًا ، وكانت شعاعات الشمس تغمر الكون فتنساب منها شعاعات إلى بيت حافظ فلا يحفل منها شيئًا . وكانت فؤادة جالسة تقرأ كتابها وفاطمة تصلى الضحى فى خشوعها حين طرق الباب طرقات وادعة مطمئنة . وقال حافظ :

ـ من ؟

وجاءه صوت من الخارج :

ـ أنا فايز يا حافظ افتح .

وصاح حافظ :

ـ فايز بك .. لحظة يا سعادة البك .. ادخلا .

وكانت فاطمة تصلي فلم تبال أمره ، بل استمرت في صلاتها في هدوء كأن شيئًا لم يحدث ، ويقول حافظ لفؤادة :

ـ سأخرج إلى فايز بك وحين تتم أمك صلاتها ناديني .

وخرج إلى فايز بك وأقفل الباب من خلفه وفهم فايز بك أن بالقاعة حريمًا لم يتيسر لهن أن يدخلن إلى البيت ، فهو يقبل تحية حافظ دون تعجب من خروجه ، ويحيي حافظ طلعت الذى جاء في رفقة أبيه .

ـ أهلا فايز بك .. أهلا طلعت بك .. هذا شرف كبير . لماذا لم ترسل لى ؟

ـ كيف حالك يا حافظ .. لم أرك من زمن بعيد .. ماذا ؟ هل نسيت أيام لعبنا ولهونا .

ـ يابك العفو .. وإنما خشيت أن أشغلك عن عملك .

ـ لقاء الصديق حبيب إلى النفس دائمًا يا حافظ .

وجاء صوت فؤادة :

ـ تفضل يا آبا .

ويفتح حافظ الباب وهو يقول :

ـ أهلا فايز بك .. أهلا طلعت بك .

ويطمئن المجلس بثلاثتهم ويقول فايز :

ـ أتذكر أول يوم دخلنا فيه إلى الجامع ؟

ويذهل حافظ عن الإجابة لحظات ثم يصحو من ذهوله ليقول :

ـ نعم .. آه .. أيام .

ـ مالك يا حافظ ؟!

وتعلو وجه حافظ قترة وتنقبض سماته ويحس بدوامة تئز في داخله ويقول :

ـ لا شيء يابك .. لا شيء .

- أراك وكأن عاصفة تعصف بنفسك .

- لا شىء يابك .. أبدًا .. إن مجيئك شرف كبير .

ويلتفت فايز إلى طلعت :

- كنا نلعب أمام الجامع .

وتنداح الكلمات فى وسيع الفضاء ولا يسمع حافظ شيئًا .. كان عتريس هنا .. وقد حدد يوم الخميس .. واليوم يوم الأحد .. أيستطيع هذا البك أن يفعل شيئًا . لو طلبت إليه أن يفعل شيئًا لأنزل بى عتريس الويل الآخذ ولأصبحت من غدى بلا ابنة ولا زوجة ولا أرض ولا وجود .. وماذا بيد هذا الرجل أن يفعل .. إن عتريس يملك السلاح ويملك الليل الأسود ويملك الاختفاء حين يشاء .. أى قوة فى الأرض تستطيع أن تفعل شيئًا أمام النفس المجرمة .. الإجرام لا يرده شىء إلا الإجرام نفسه .. وهذا البك لا يعرف الإجرام .. ماذا أقول له ؟ .. وصحا حافظ من ذهوله على صوت فايز وهو يقول له :

- أنسيت هذا اليوم يا حافظ .. هل نسيت ؟

- نعم .. أنسى ؟ .. وهل يمكن أن أنسى ؟

وجاءت فؤادة بالقهوة وقال فايز :

- أهلا فؤادة .. كيف أنت ؟

- أهلا بك يا سعادة البك .

- لماذا لا تقولين ياعمى .. أنا أحب أن تقولى يا عمى .

- أمرك يا عمى ..

وأخذ فايز فنجانه ثم قدمت فنجانًا إلى طلعت وتمت بينهما المصافحة بنظرة . وفى النظرة فهم كل منهما ما يريد أن يقول للآخر .

وخرجت فؤادة وقال فايز :

ـ حافظ لقد جئتك اليوم لأتم أسعد شيء في حياتي .

ـ مرحبًا بك في بيتك يا فايز بك .

ـ أريد أن أخطب ابنتك فؤادة لابني طلعت .

ـ ماذا ؟

ـ إنها أمله منذ زمن بعيد .

وصمت حافظ بعض الحين ، ثم قال :

ـ أتدرى أى أمل ضخم تقدمه لى يا فايز بك .

ـ أنا أدرى أننا صديقان منذ الطفولة .

ـ ماذا تظن بى إذا أنا رفضت ؟

ـ ترفض ؟

ـ مرغمًا يا فايز بك .

ـ ماذا تقول ؟

ـ وأرجوك .. أرجوك .. لمصلحتك أنت ولمصلحة طلعت ألا يعرف أحد أنك طلبت منى هذا الطلب .

ـ ماذا بك يا حافظ ؟

ـ كل ما أرجوه منك ألا تقول إنك خطبت فؤادة لطلعت ، وستعرف كل شيء في حينه .. أنا لا أريد أن أحملك الهم الذى أحمله .

ودون أن يحس وجد طلعت نفسه يقول :

ـ إنها زوجتى منذ زمن طويل .

والتفت إليه حافظ مذعورًا :

ـ ماذا قلت ؟

ودون أن يلتفت إليه طلعت قال :

- إنها زوجتى منذ نحن أطفال فى الملعب .. هناك فى ساحة البيت كنت أحس أنها جزء منى ، أو أننى جزء منها ، وأننا لن يفصلنا شىء فى الوجود ، وكبرنا وكبر معى هذا الشعور فأصبحت الحياة التى أحياها هى حياتها وأصبحت الخفقات التى يدقها قلبى هى خفقاتها ، وأصبحت هى الهواء الذى أنشقه والدماء التى تمضى فى جسمى ، والآمال التى أبقيها لغدى ، والذكريات التى أحفظها من أمسى . فماذا يمكن أن يحول بيننا ؟

وقال فايز :

- هناك سر كبير تخفيه يا حافظ .

- كبير بقدر المصيبة التى يحملها هذا السر .. هو سرى أنا فدعنى أشقى به وحدى .

- فلست صديقك إذن .

- بل لأنك صديقى أريدك أن تظل بعيدًا عن هذا السر .

- لا أشعر بالرجولة إذا سمحت لنفسى أن أظل بعيدًا عن سر يحمل المصيبة لك .

- لو كنت أعتقد أن علمك به سيخفف منه لبحت به لك .. ولكن لا فائدة .

ويقول طلعت وكأنه يتكلم من مكان آخر :

- أيًا كان الأمر فسأتزوج من فؤادة .

(١٣)

وحل يوم الخميس وكان لابد لحافظ أن يدعو المأذون وشاهدين .. وقام حافظ فى باكر الصباح ليلحق بثلاثتهم قبل أن يخرجوا من بيوتهم . وقصد أول ما قصد إلى الشيخ عبد التواب وكان الشيخ يتناول إفطاره .

- صباح الخير يا عم الشيخ عبد التواب .

- أهلا وسهلا سى حافظ أفندى .. تفضل معنا .

- شكرًا سبقتك .

- نشرب القهوة معًا إذن .

- والله يا عم الشيخ عبد التواب عندى بعض أعمال وأريدك فى كلمة وأمضى .

- يا رجل نشرب القهوة .

- مرة أخرى إن شاء الله .

- أمرك .

- نتعشى معًا الليلة فى بيتنا .

- أنا تحت أمرك .. هل هناك مناسبة ؟

- ستعرف فى الوقت المناسب إن شاء الله .

- أمرك .

- وأحضر معك الدفتر .

- هل سنفرح إن شاء الله .

- أرجوك لا تسأل وستعرف كل شىء فى حينه ، ولا تذكر لأحد أنى دعوتك الليلة .

- لماذا ياسى حافظ أفندى .. أعلنوا الزواج ولو بالدف .. لماذا لا أخبر أحدًا .

- أرجوك يا عم الشيخ عبد التواب لمصلحتك لا تخبر أحدًا .

- لمصلحى أنا .. !

- نعم لمصلحتك أنت .. أرجوك .

ـ المسألة فيها سر ياسي حافظ أفندى .. أولا أنت جئتنى مبكرًا ، وأنت تعلم أنك لو كنت تأخرت لوجدتنى عند عبد الملاك دون حاجة منك إلى التبكير .

ـ سبحان اللّه يا شيخ عبد التواب . وهل نقرأ فى سورة عبس .. لا أريد أحدًا يعرف أنك قادم عندى الليلة .

ـ لماذا ؟

ـ لا إله إلا اللّه ... ستعرف .

ـ ولكن الزواج لا يختفى .. لابد أن يذيع أمره .

ـ سيذيع يا أخى . سيذيع ويشيع ويملأ الدنيا . ولكن الليلة فقط لا أريد أحدًا أن يعرف أرجوك .

ـ لابد من سبب .

ـ ستعرفه .

ـ أمرك .

ـ لا تقل لأحد .

ـ أمرك .. ولكن مثل هذه الزواجات لها أجر خاص ياسى حافظ أفندى .

ـ ما ستطلبه ستأخذه يا شيخ عبد التواب ، كل ما ستطلبه ستأخذه .

ـ أمرك .

ـ سلام عليكم .

ـ وعليكم السلام .

وخرج حافظ إلى المدرسة ، وكان هنداوى أفندى يبدأ يومه ودخل إليه حافظ :

ـ أهلا حافظ أفندى .. مرحبًا .. خطوة عزيزة وغريبة أيضًا .

ـ أهلا بك يا هنداوى أفندى .

ـ هذه أول مرة تشرف فيها المدرسة .. أنا رجل دقيق ، هـذه أول مـرة تشرف فيهـا المدرسـة . الفـراش مشـغول بضـرب الجـرس . دقيقـة واحـدة ويحضر لنا القهوة .

ـ هى كلمة وأمضى .. ورائى أعمال كثيرة .

ـ أفندم .. أنا تحت أمرك .

ـ نتعشى معًا الليلة .

ـ نتعشى جدًا ، ولكن ما المناسبة ؟

ـ ستعرف فى حينها .

ـ وهو كذلك ، ولكن لابد أن تشرب معى قهوة الصباح .

ـ شكرًا يا هنداوى أفندى . أنا فى انتظارك .. لا تتأخر .. و .. و ..

ـ وماذا أيضًا ؟

ـ أفضل أن نجعل أمر هذه الدعوة سرًا بيننا .

ـ سرك فى بير ياسى حافظ أفندى . ولكن ما المناسبة ؟

ـ أخشـى أن يسـتاء زمـلاؤك أننـى لم أدعهـم .. والدعـوة فـى الواقـع مقصورة على أفراد قلة من الأصدقاء .

ـ ما تراه يا حافظ أفندى . ما تراه ..

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السلام .

وحين ذهب إلى الشيخ بسـيونى وجـده يوشـك أن يخـرج مـن البيـت ، فاستقبله الرجل على الباب :

ـ أهلا حافظ أفندى .. تفضل .

ـ أراك كنت خارجًا .. أخشى أن أعطلك .

ـ تعطلنى عن ماذا ؟ لا وظيفة ولا عمل .. تفضل .

وحين دخلا البيت صاح الشيخ بسيونى :

ـ القهوة يا رتيبة .

وجاء الصوت من الداخل :

ـ حاضر .

واستقر المقام بالرجلين :

ـ أهلا وسهلا حافظ أفندى .

ـ أهلا يا عم الشيخ بسيونى .

ـ كيف حال الزراعة عندك ؟

ـ على ما يرام .

ـ الفدان عندى رمى سبعة قناطير من القطن .. كم رمى الفدان عندك ؟

ـ رمى .. رمانى فى داهية .

ـ ماذا ؟

ـ ماذا ؟

ـ تقول ماذا رمى الفدان عندك ؟

ـ لا أدرى .

ـ ماذا تقول يا حافظ أفندى .. أنت فلاح لا نظير لك فى الجهة وتقول إنك لا تعرف كم رمى الفدان عندك .

ـ لامؤاخذة يا عم الشيخ عبد التواب .

ـ ماذا .. ماذا تقول ؟

ـ لا مؤاخذة يا عم الشيخ بسيونى .. أنا مشغول بعض الشىء .

ـ ماذا بك .

ـ لا .. لا شىء .

ـ يا أخى إن النظرة إلى ابنتك فؤادة وإلى غيطك تشرح القلب الحزين ، فماذا يضايقك ؟

ـ نتعشى معًا الليلة يا شيخ بسيونى .

ـ وجب يا سيدى ، ولكن ماذا بك ؟

ـ لا عليك .

ـ هل سيتعشى معنا أحد ؟

ـ قليلون .

ـ وهو كذلك .

ـ أستأذن أنا .

ـ القهوة .

ـ آه القهوة .. ألا يمكن أن تؤجلها ؟

ـ أتريد الحاجة رتيبة تعمل لها حكاية ..

ـ حكاية سوداء .

ـ ماذا ؟

ـ ماذا ؟

ـ ماذا تقول يا حافظ أفندى ؟

ـ لا .. لاشىء أنا منتظرك يا شيخ بسيونى . لا تتأخر .

ـ طيب انتظر القهوة .

ـ أمرك . سلام عليكم .

ـ والقهوة ؟!

ـ أنا منتظرك . سلام عليكم .

وخرج حافظ إلى غيطه ، لم يذهب إلى البيت . وهناك ظل رانيًا إلى الحقل لا يكاد يحس أنه حقله . لم يسأل أحدًا ممن يعملون به عن شىء ..

وحين جاءه من يقوم بالجمع يريد أن يكلمه فيما جمعوه في يومهم تركه وانصرف إلى أقصى الغيط ، وحين لحق به تركه إلى النهر وجلس في ذهول تحت الصفصافة وراح يلقي ببصره إلى النيل . هذه دمائي وهي اليوم مهدرة .. دمائي مهدرة ولا تغذى إلا عتريس .. عتريس .. عتريس ..

وأصبح الوقت ظهرًا ثم أضحى الظهر عصرًا وصار العصر إلى الغروب . وحين رأى الشمس تودع النيل والدنيا من حوله قام يمشي وانيًا إلى بيته . وفي صمت حزين دلف إلى البيت . وفي صمت حزين استقبلته زوجته واستقبله البيت . إلا فؤادة التي كانت تبدو وكأن ما هم فيه لا يمت إليها بصلة . هادئة هي مطمئنة لا تقول شيئًا ولا يبدو عليها حزن أو ألم أو صراع . وأقبل هنداوي أفندي وحاول أن يجري الحديث ، ولكنه لم يجد من حافظ مستمعًا ولا متحدثًا ، وما لبث أن أقبل الشيخ بسيوني فاتصل الحديث بينه وبين هنداوي . وقليلا ما اتصل فما لبث الشيخ عبد التواب أن جاء ومعه حافظة أوراقه وقال هنداوي :

ـ أهلا شيخ عبد التواب . جئت ومعك الحافظة . فهل ترى كنت في زواج أم طلاق ؟

وتلجلج الشيخ عبد التواب وقال حافظ أفندي :

ـ ستعرف حالا يا هنداوي أفندي .

ـ أهناك سر إذن .. لا ياسيدي لابد أن تخبرنا بالسر فأنا كما تعلم ...

وقال الشيخ بسيوني مقاطعًا :

ـ رجل دقيق . لم يقل أحد شيئًا . ولكن ما دخل الدقة فيما نحن فيه .. لقد قال لك ستعرف حالا .. فما البأس أن تنتظر ؟

ـ وماذا أنتظر ؟

وقبل أن يجيبه أحد سمع أربعتهم فى الخارج ضجيجًا متخافتًا صحبه طرق على الباب ، وفتح حافظ ودخل عتريس وأقفل الباب من خلفه ونظر ثم قال لحافظ :

ـ إذن فقد أحضرت أنت الشهود .. أتعبت نفسك .. إن معى أيضًا شهودى .

كانت المفاجأة مذهلة للثلاثة . أما هنداوى فوثب واقفًا . وأما الشيخ عبد التواب فتنحنح وسعل ، ومالبث أن قال فى صوت متلعثم :

ـ أهلا .. أهلا وسهلا ومرحبًا .

أما الشيخ بسيونى فقد ظل جالسًا صامتًا مترددًا فيما يقول أو يفعل ، وحين استقر رأيه على الوقوف كان الجميع قد جلسوا .

وقال عتريس فى صوت حازم :

ـ ننتهى من الأمر بسرعة . فما أحب أن أطيل مكوثى بالقرية ، توكل على اللّه ياشيخ عبد التواب .

ـ نعم .. أنا تحت أمرك .. ماذا تريدنى أن أفعل ؟

ـ ألم تعرفوا لماذا جئتم ؟

وقال الشيخ بسيونى :

ـ قال لنا نتعشى معًا الليلة .

ـ فقط ؟

ـ فقط ؟

ـ هيه .. لقد جئتم لتكتبوا كتابى على فؤادة .

وقال الشيخ عبد التواب فى سرعة :

ـ وماله ؟ نكتب .

وقال عتريس :

ـ فماذا تنتظر ؟

وقال الشيخ عبد التواب :

ـ توكلنا على الله . نكتب على بركة الله .. الوكالة ياسى حافظ أفندى ، وكأنما لم يكن حافظ بالحجرة ، فهو ذاهل صامت لا يجيب ويكرر الشيخ عبد التواب :

ـ يا حافظ أفندى .

ويقول حافظ وكأنه يرتد من بئر عميقة :

ـ نعم .

ـ الوكالة .

ـ حاضر .

ويقوم حافظ قائلا فى استسلام :

ـ تفضل يا هنداوى أفندى .. تفضل يا شيخ بسيونى .

ويقوم الرجلان وراء حافظ ويدلفان إلى باب البيت ويمضى حافظ ذاهلا حتى ما يعى أن يصيح بأهل بيته أن يختفوا عن أعين الرجال . وقبل أن يصلوا إلى حجرة فؤادة يستوقف هنداوى حافظ وينظر حوله ليزداد تأكدًا أنه قد بعد عن سمع عتريس :

ـ لماذا فعلت بنا هذا يا حافظ أفندى ؟

ويقول حافظ فى أسى :

ـ إن كان لابد لها أن تتزوج من عتريس فلا أقل من أن يكون الشهود من العدول .. أكنت تريد شهود بنتى الشيخ إسماعيل أم عبد المعطى أم عثمان شاكر ؟

ـ ولكن نحن ما ذنبنا أنا والشيخ بسيونى ؟

وقال الشيخ بسيونى :

ـ نعم .. صحيح .. ماذنبنا ؟

ـ وماذا ألم بكما ؟

وقال هنداوى :

ـ نشهد على زواج عتريس ؟

وقال الشيخ بسيونى :

ـ اسكت لا يسمعك .

وقال حافظ :

ـ إنكما تشهدان على زواج ابنتى فؤادة .

وقال هنداوى :

ـ لا ياحافظ أفندى أعفنى .

ـ ماذا ؟

ـ أعفنى .

وقال الشيخ بسيونى :

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول إننى لن أشهد .

وقال حافظ :

ـ أهكذا ؟

وقال هنداوى :

ـ نعم .

فقال الشيخ بسيونى :

ـ إذن فلن تشهد ؟

ـ نعم .

ـ فاخرج إذن .

ـ ماذا ؟

ـ اخرج ولا تشهد .

ـ أخرج .

ـ طبعا .. اخرج أنت ، وسيأتى بدلا منك الشيخ إسماعيل الصفورى أو عبد المعطى العجل أو عثمان شاكر .

ـ أخرج أخرج .

ـ وماذا تريد أن تفعل ؟

ـ أخرج ؟ ! وماذا أقول لعتريس ؟

ـ إنك لا تريد أن تشهد على زواجه .

ـ يا نهار أسود من الحبر .. أنا أقول هذا لعتريس ؟

ـ وماذا تريد أن تفعل إذن ؟

وقال هنداوى فى حزم :

ـ هيا بنا يا حافظ أفندى .

وقال حافظ فى يأس :

ـ إلى أين ؟

ـ إلى ابنتك فؤادة .

وتقدم حافظ إلى باب فؤادة ، وطرق الباب وجاءه صوتها الهادىء :

ـ ادخل .

قال حافظ :

ـ معى ناس يا فؤادة .

قالت فى هدوء :

ـ تفضلوا .

ودخل ثلاثتهم ، وقال هنداوى :

- مساء الخير ياستى فؤادة ، كيف أنت ؟

- مساء الخير يا عم هنداوى أفندى .

وقال الشيخ بسيونى :

- مبروك يا بنتى .

وقالت فؤادة :

- بارك اللّه فيك ياعم الشيخ بسيونى .. علام ؟

- علام .. ألا تعرفين ؟

وقال حافظ :

- عمك الشيخ بسيونى وعمك هنداوى أفندى جاءا ليأخذا منك الوكالة .

وقالت فؤادة وكأنها لا تدرى شيئًا عن حديث أبيها :

- الوكالة .. لماذا ؟

وقال أبوها :

- لزواجك .

- ممن ؟

وقال أبوها :

- من عتريس .

- ولكنى قلت إننى لن أتزوجه .

وقال حافظ :

- يا بنتى وهل بيدنا ؟

- إنه بيدى أنا .

وقال حافظ :

- يابنتى يقتلنا جميعًا .

- هو حر ، ولكننى لن أتزوجه ، ولن أعطيك الوكالة .

وقال الشيخ بسيونى :

ـ أنت يا بنتى فاهمه الذى تقولين أو الذى تفعلين .

ـ كل الفهم .. أنا أرفض أن أعطى الوكالة لتزويجى من عتريس . أنا فاهمة تمامًا ما أقول وما أفعل .

قال هنداوى :

ـ يابنتى لأجل خاطر أبيك .. لأجل خاطرنا .

قالت فؤادة :

ـ أفاهم أنت ما تقول يا عم هنداوى أفندى .. أتزوج .. أتفهم معنى أتزوج ؟ أصبح زوجًا .. أصبح نصفًا لإنسان آخر .. أصبح بيته وحياته وشريكته فى إنجاب أطفال أحياء إلى هذه الدنيا .. أتزوج .. أتفهم معنى كلمة أتزوج لأجل خاطر أبى أو خاطرك أو خاطر الشيخ بسيونى .. أتزوجه لأجل خاطر .. يا هنداوى أفندى ؟

ـ يعنى لا .

ـ طبعًا لا .

وقال الشيخ بسيونى :

ـ لا وكالة .

ـ لا وكالة .

ـ إه .. ما على الرسول إلا البلاغ .. هيا بنا يا هنداوى أفندى .. هيا بنا يا حافظ أفندى .

ويقول حافظ :

ـ يا ابنتى فكرى .

ـ وبلا تفكير يا أبى .

ـ الأمر للّه .

ويخرج ثلاثتهم إلى الدهليز الذى كانوا يقفون به قبل دخولهم إلى حجرة فؤادة ، ويهم الشيخ بسيونى فى مشيته يتبعه حافظ فى تفكير عميق ويقول هنداوى :

ـ انتظر يا شيخ بسيونى ! انتظر يا حافظ أفندى ! إلى أين أنتما ذاهبان ؟ .

ويقول الشيخ بسيونى :

ـ وإلى أين يمكن أن نذهب .. إلى عتريس .

ويقول هنداوى :

ـ وماذا أنتما قائلان له ؟

ويقول الشيخ بسيونى :

ـ ما حصل ؟

ـ ما الذى حصل ؟

ـ فؤادة رفضت أن تعطى الوكالة .

ـ هكذا ؟

ـ أليس هذا هو ما حصل ؟

ـ وسيصدق ؟

ـ يصدق أو لا يصدق .. هذا ما حصل .

ـ أنت رجل طيب .

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ لو قلت له إنها لا تريده فسيقول إن أباها هو الذى أوصاها بهذا .

ـ ولكنا شهود على أن أباها حاول بكل جهده .

ـ أتعتقد أنه سيقبل هذا .

ـ يقبل ماذا ؟

ـ يقبل أن نشهد نحن وأنا وأنت على رفضها ويسكت .. أيقبل أن تهان كرامته أمامنا ، ويتركنا نحكى للناس كيف انتصرت عليه فؤادة .

ـ وما الذى يجعلنا نقول للناس ؟

ـ وما الذى يجعله يصدق أننا لن نقول للناس ؟

ـ نحلف له .

ـ أنت رجل طيب .

ـ وماذا تريد أن تفعل ؟

ـ أنا رجل دقيق .

ـ أهذا وقته ياهنداوى أفندى ؟

ـ نقول إن فؤادة وكلت أباها .

ويصيح حافظ :

ـ ماذا .. ماذا تقول يا هنداوى أفندى ؟

ـ أنت أبوها .

ـ ولكن العقد لا يصح .

ـ هذا شأن المشايخ .. إنما نحن نفعل ما علينا .

ويقول الشيخ بسيونى :

ـ أهذا ما علينا أن نفعله ؟

ويقول هنداوى :

ـ أليس هذا خيرًا من أن يقتل فؤادة ؟

ويقاطعه حافظ :

ـ يقتل فؤادة ؟

ـ على الأقل يقتلها ، إن لم يمثل بها ويلحق بها حضرتك والست حرمك . وطبعًا نحن سنقتل قبل أن نخرج من باب البيت .

ويقول الشيخ بسيونى :

ـ وكنت تريد ألا تشهد ؟!

ـ كنت ذاهلا عن الموقف .. لقد تبينت حقيقة الأمر حين قلت لى اخرج وقل إنك لن تشهد .. وضح الأمر تمامًا أمام عينى وأنا كما تعرف ..

وقاطعه حافظ :

ـ يقتل فؤادة .

ـ وماذا تظنه سيفعل بمن ترفضه ؟

ـ لقد هدد بذلك فعلا .

ـ وهل هو محتاج إلى تهديد .. إنه عتريس !!

ـ وماذا هو فاعل بها إن ذهبت معه إلى البيت ؟

ـ أتظن أنها ستقول له إنها ليست زوجته .. إنها جريئة لأنها معك ومعنا .. أما أمامه ..

ـ وحينئذ ؟

ـ وحينئذ يصبح العقد صحيحًا .. أليس كذلك ياشيخ بسيونى ؟

ـ نعم يصح العقد . تكتمل شروطه .. برضائها تتم شروطه .

ـ إذن ؟

ـ إذن هى وكلتك . أليس كذلك يا شيخ بسيونى .

ـ نعم وكلت أباها .

وسأل الشيخ عبد التواب :

ـ هيه .

وقال هنداوى :

ـ وكلت أباها .

ـ هل وكلت أباها يا شيخ بسيونى ؟

ـ نعم وكلت أباها .

ـ هل وكلتك يا حافظ أفندى .

ـ آه .. نعم .. نعم وكلتنى .

ـ مد يدك .. هات يدك ياسى عتريس .. بسم اللّه الرحمن الرحيم .. قال سبحانه وتعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ، صدق اللّه العظيم . وقال عليه الصلاة والسلام : « تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » قل ياسى حافظ أفندى .. زوجتك موكلتى فؤادة حافظ البكر البالغة على سنة اللّه ورسوله وعلى مذهب الإمام أبى حنيفة وعلى المهر المسمى بيننا . قل ياسى عتريس قبلت زواجها .

(١٤)

خرج عتريس بعد أن قال لحافظ :

ـ سأنتظرها بالخارج وأريدها وحدها .

ودخل حافظ إلى ابنته !

ـ هلم يا فؤادة .

ـ إلى أين يا أبى ؟

ـ إلى بيت زوجك .

ـ لا يمكن . أنا لم أعطك الوكالة .

ـ أنا أبوك ، وقد زوجتك .

ـ وأنا لا أترك بيتى هذا .

ـ لم يصبح هذا بيتك .

وألجمتها الكلمة حينًا ، ثم قالت :

ـ فأنت تريدنى أن أذهب معه ؟

ـ وستذهبين .

ـ حسنًا يا أبى . سأذهب .

وقالت فاطمة :

ـ أتذهب وحدها .

وقال حافظ :

ـ إنه يريدها وحدها .

ـ أمر اللّه .. مع السلامة يا ابنتى .

وحين حاولت أمها أن تضمها انتفضت وقصدت إلى الباب لا تلتفت وراءها وقالت فاطمة :

ـ ألا تأخذين ملابسك ؟

وقال حافظ :

ـ نرسلها لها فى غد .

وقالت فاطمة :

ـ أين نرسلها .. وهل نعرف أين تقيم ؟

ولم تنتظر فؤادة ، بل أخذت طريقها إلى خارج البيت . وحين ظهرت من الباب قال لها عتريس فى صوت حالم :

ـ اتبعينى .

* * *

وحين بلغوا البيت ، وخلت الحجرة بفؤادة وعتريس اتخذت فؤادة مكانها على أريكة لاحظت أنها مغطاة بحرير جديد ، وسكتت كأن ماهى فيه لا يعنيها . اتخذ عتريس مكانه بجانبها على الأريكة جاعلا وجهه لها .

- لو تدرين أى أمل كبير أحققه بجلوسك هذا .. لقد عشت عمرى كله أحلم بك جالسة معى .. لا تدرين كم أحبك ، ولا تدرين أى سعادة وهناء سأقدمه إليك . لو تدرين ؟!

لقد عشت عمرى كله وأمنيتي الكبرى هى أن أتزوج بك . منذ أنا طفل صغير .. كنت أتمنى أن أكون صديقك وشب معى الحب وكبر وطغى على كل أمنياتى ، حتى لقد كنت أحب أن أتمتع به أمنية كبرى وأصبر وأتمتع بالصبر .. واليوم تحقق الحلم .

وفى هدوء قالت فؤادة :

- بل لم يتحقق شىء .

- تحقق أملى الكبير وتزوجتك .. اغفرى لى الطريقة التى تزوجتك بها ، ولكن لم تكن أمامى طريقة أخرى .. أرأيت .. الغنى يخطب ويقدم غناه ليشفع له فى الزواج . والشاب الجميل يقدم شبابه وجماله ، وأنا أملك القوة ، وقد كانت شفيعى لأتزوج منك .. تغفرين لى هذا أليس كذلك .. لقد جعلتها وسيلة لأتزوج منك ، وهذا دليل على حبى الكبير لك .. وأرى الوسيلة كانت ناجحة ، وها قد تزوجت منك .

وقالت فؤادة فى نفس هدوئها :

- بل أنت لم تتزوج منى .

- طبعًا أنت لا تحبيننى الآن .. وكيف كان يمكن أن تحبينى ، كنت أراك ولا ألعب معك ونحن أطفال لأن جدى كان يشغلنى طوال الوقت الذى لم أكن فيه بالمدرسة ، حتى إذا كبرت ظللت مقيمًا معه هنا ، ولم أكن أذهب إلى البلدة إلا فى القليل النادر .. وكثيرًا ما كنت أختلق الحجج لأذهب إلى البلدة وأراك فأنت لم تعرفينى ، ولكنك طبعًا كنت تسمعين بى .. وعلى كل حال أنت لا تحبيننى الآن ، وليس المفروض أن تحبينى ، ولكن مع الأيام

ستعرفين كم أحبك ، وسترين أننى سأعيش لأوفر لـك السـعادة والهناءة ، وستعرفين أننى أعظم الأزواج حبًا لزوجته .

وفى بساطة عادت فؤادة تقول :

ـ ولكننا لم نتزوج .

ـ سيأتى الحب ... سيأتى رغم أنفـه .. سـوف أجعـل طلبـاتك أوامـر ، وسوف تجدين نفسك مع الأيام مضطرة أن تحبى زوجك .

وعادت فؤادة تقول :

ـ ولكنك لست زوجى .

ـ أضايقتك الطريقة التى سلكتها لـلزواج منـك .. فأنـا أعتـذر لـك .. دعينى أقبل يدك .. وانسى ما كان ولنبدأ حياة جديـدة بـين زوج وزوجتـه هات يدك .

ونترت فؤادة يده فى سرعة ودون غضب وهى تقول :

ـ لسنا زوجًا وزوجة .

وصمت عتريس لحظات ثم قال :

ـ أكل هذا لأننى أرغمت أباك على أن يزوجنـى بـك .. ألا يـدل هـذا على حبى .. لماذا كل هذا ؟

ـ كل ماذا ؟

ـ كل هذا النفور والغضب ؟

ـ أنا لم أنفر ولم أغضب .

ـ فما قولك إننا لسنا زوجين .

ـ إننا لسنا زوجين .

ـ والكتاب ؟

ـ باطل .

- والشهود ؟
- مزورون .
- هل أنت واعية ما تقولين ؟
- تمام والوعى .
- ما الذى تعنين ؟
- أعنى أننى لم أوكل أبى ليزوجنى منك .
- فكيف زوجنى منك ؟
- خوف .
- والعقد ؟
- باطل .
- والشهود .
- خوف .
- فأنا لست زوجك ؟
- لا .. لست زوجى .
- وتزويج أبيك ؟
- باطل .. يجب أن يتم الزواج بموافقتى ، وأنا لم أوافق .
- أرغمك على الموافقة .
- لا تستطيع .
- أقتلك .
- تستطيع ، ولكنك لا تكون قد تزوجت منى .
- أنا لك بالقوة .
- لعلك تستطيع أيضًا ، ولكنك لا تكون قد تزوجت منى .
- هراء .. هراء ما تقولين .

ـ وأين الهراء فيه ؟

ـ كيف قبل أبوك هذا ؟

ـ وماذا تظنه فاعلا .. خاف أن تقتلني .

ـ إذن أقتلك .

ـ لا تحسب أنك تخيفني بهذا التهديد . فأنت لا تستطيع أن تقتلني ، وإذا قتلتني فإني لن أموت .. أنا أمل في نفسك ، فكرة في ضميرك .. الزواج مني حلم طفولتك وصباك وشبابك . إذا قتلتني فسأظل في نفسك أملا وفكرة وحلمًا .. وسيظل الحلم حلمًا لم يتحقق .

ـ أقتلك .. أقتلك .

ـ لن أموت .. مهما تقتلني فلن أموت .

ـ أقتلك .. أقتلك .

ـ الفكرة لا تموت .

وترك الغرفة وخرج وهو يصرخ :

ـ ولكني سأقتلك .. سأقتلك .. سأقتلك .

(١٥)

وجد الشيخ إسماعيل الصفوري وعبد المعطي العجل وعثمان شاكر جالسين بالقرب من الباب الخارجي فصاح بهم دون أن يلتفت إليهم :

ـ هلم بنا .

وقام الرجال لم يسألوه إلى أين ، وسار فساروا من خلفه ، وقبل أن يبتعدوا قال عبد المعطي :

ـ أنأخذ معنا بعض الرجال .

وقال وهو سائر :

ـ نعم .

وتخلف عبد المعطى ، وما هى إلا لحظات حتى كان جمع كبير يتخذ طريقه إلى القرية . وشملهم الصمت فترة طويلة حتى قال عتريس فجأة :

ـ يا شيخ إسماعيل .

ـ نعم .

ـ أبوها كذب على .. زوجها منى وهى لم تعطه الوكالة .

ـ أكذا .. عجيبة !!

ـ أتظن أننى أقول لك هذا لتقول لى عجيبة ؟!

ـ هى عجيبة على كل حال !

ـ هل الزواج صحيح أم لا .. ألم تكن شيخًا ؟

ـ صحيح طبعًا .. ألم يزوجها أبوها منك .. صحيح طبعًا .

ـ هل أنت متأكد ؟

ـ كل التأكد .

ـ سنرى .

ـ ماذا ترى .. الزواج صحيح .

ـ سأسأل أباها أولا ..

ولم يكن حافظ نائمًا حين طرق الباب :

ـ هل زوجتنى بنتك دون أن تعطيك الوكالة ؟

ـ إذن فهى مصممة .

ـ مصممة .. إذن فهى لم تعطك الوكالة .

ـ وماذا بيدى ياسى عتريس ؟

ـ أتظن أن هذا يخيل على .

ـ ما الذى يخيل عليك ؟

ـ دبرت هذا جميعه .

ـ أنا لم أدبر شيئًا .. لو كنت دبرته لقلت فى وقت كتب الكتاب إنها لم تعطنى الوكالة .

ـ دبرت هذا جميعه وستلقى جزاءك .

وحين خرج قال لعبد المعطى :

ـ أغرقوا أرض القطن عند حافظ وهنداوى وبسيونى ، وأحرقوا أرزهم أيضًا .

ومضى هو وإسماعيل الصفورى وعثمان شاكر وبعض الرجال وفجأة التفت إلى عثمان شاكر :

ـ ألم تكن وكيل محام .. هل العقد صحيح أم غير صحيح ؟

ـ صحيح قطعًا .

ـ هل أنت متأكد ؟

ـ طبعًا .

وفكر أن يذهب إلى الأستاذ عليوة ولكنه لسبب لا يدريه قال لإسماعيل :

ـ أرسل رجلا إلى بيت إنعام يرى إن كان عندها أحد أم لا ؟

وفى دهشة سأل إسماعيل :

ـ تقصد إنعام زوجة رشدى .

ـ لقد طلقا . أليس كذلك ؟

ـ نعم ، فقط أردت أن أتأكد أنك تريدها هى .

ـ نعم هى من أريدها .

وحين عاد إليهم الرسول يخبرهم أن إنعام وحدها .. قصدوا إلى بيتها ، وقال عتريس وهو يدخل :

ـ انتظروا هنا .

ودخل وأقفل الباب من خلفه ، والتفت عثمان إلى إسماعيل :

ـ هذه وظيفة جديدة علينا يا أبو السباع .

ـ مبروكة إن شاء اللّه .

ـ وقفنا هذه الوقفة ، وهو يتزوج وقلنا لا بأس . أما الآن .

ـ الفارق بسيط يا أبو عفان .

ـ بسيط .... بسيط ؟ !

ـ الزواج كان بعقد مشكوك فيه .. أما العقد هنا فصحته مؤكدة .

قالت إنعام :

ـ أهلا وسهلا .. خطوة عزيزة يا أبا الرجال .

ـ أهلا بك .

ـ طالما تمنيت أن تشرفنى .

ـ وكيف وأنا مشغول وأنت مشغولة .

ـ بأمرك أكون غير مشغولة .. أنا تحت أمرك دائمًا .

ـ حفظت .

ـ كل ما أرجوه أن تكثر من هذه الزيارات .. اجعل ساعة لقلبك وساعة لربك .

ـ لربى ؟!

ـ أقصد لعملك .

ـ آه !

ـ أنت مع شغلك هذا الدائم محتاج لمن تزيل عنك هم العمل ومسئولياته .

ـ قالت إنها لم تعط الوكالة .

ـ نعم ؟

ـ لا .. لا شيء .

ـ أهلا ...

واقتربت منه ولف ذراعه حولها فتداعت بين أحضانه فقبلها وقبلته .. ثم عاد فقبلها وقبلها وقبلها .. ثم ما لبث أن انتفض واقفًا .

ـ لا .. لا فائدة .

ـ ماذا يا سيد الرجال .. أترانا لم نعجب ؟

ـ أنا مشغول الفكر يا إنعام .. لا تؤاخذينى .

ـ أنا تحت أمرك دائمًا .

ـ كم تريدين ؟

ـ أبدًا .

ـ قولى كم ولا تعطلينى .

ـ لا آخذ منك شيئًا أبدًا .

ورمى لها خمسين قرشًا وخرج وتبعه رفاقه صامتين .. وراح يسلك بهم دروب القرية وهو لا يبين عن مقصده حتى بلغوا بيت عليوة المحامى .

ـ هل العقد صحيح ؟

ـ لا . غير صحيح .

ـ ماذا .. ماذا تقول ؟

ـ العقد غير صحيح .

مالى كأنى أواجه مفاجأة . لقد كنت أعرف .. كنت أعرف ولكن .

ـ كيف تجرؤ .. كيف تجرؤ ؟

ـ علام أجرؤ .. ليس أنا الذى يقول هذا .. إنه الشرع .. العقد غير صحيح ...

ـ كيف تجرؤ ؟

ـ لقد تزوجت على مذهب أبي حنيفة .. أبو حنيفة هو الذى قال هذا .. العقد غير صحيح .. لابد من رضائها حتى يصح العقد .

ـ ولكن أنت كيف تجرؤ ؟

ـ ماذا تريدنى أن أقول ؟

ـ أين مفتاح هذه الخزانة ؟

ـ ماذا ؟

ـ أقول مفتاح هذه الخزانة .

ـ وما شأن الخزانة بالعقد ؟

ـ هات المفتاح .

ـ ياسى عتريس حرام عليك .. إنها شقاء العمر كله ، وأمل العمر كله .. حياتى الماضية والآتية فى هذه الخزانة .

ـ هات المفتاح .

ـ أنا ما ذنبى .

ـ هات المفتاح .

(١٦)

لم ينتظر عبد الغنى حسون حتى يرد الشيخ إبراهيم تحيته ، وإنما راح يلقى له الأخبار كأنه سيل منهمر ، ولم ينتظر الشيخ إبراهيم أن يعلق عبد الغنى حسون على ما رواه من أخبار ، وإنما قام من فوره قاصدًا إلى بيت حافظ وبجانبه عبد الغنى حسون يفصل من الأخبار ما أجمله .. الحقول الغرقى والأخرى المحترقة وأموال عليوة التى انتهبت ، والشيخ ماض فى طريقه فى حزم لا يعلق بشىء ولم ينتظر ترحيب حافظ :

ـ أيفعل أحد بابنته ما فعلت ؟

ـ وماذا أفعل يا عم الشيخ إبراهيم . خفت عليها من القتل .

وقال الشيخ إبراهيم فى صوت مرتفع حاد :

ـ ترمى بها إلى رجل لم تتزوج منه خشية موتها . لقد قتلتها .

وسمعت فاطمة الحديث فدارت بها الأرض .. لم تتزوج منه ، وواصل الشيخ إبراهيم حديثه :

ـ كيف تقبل هذا يا حافظ أفندى ... كيف تقبل هذا ؟

ـ قالوا إنها إذا رضيت صح العقد .

ـ وإذا لم ترض ؟

ـ وماذا كنت أفعل ؟

ـ لابد أن تسترد ابنتك .

ـ كيف .. كيف أستردها .. إنها عنده .. فى بيته .. عند عتريس .. هناك السلاح والعصابة بأكملها . كيف أستردها ؟

ـ ابنتك فى بيت رجل ليس زوجها .. وهى وحدها . ماذا تريد أن تفعل .. تظل ساكنًا .

ـ وماذا يمكن أن أفعل ؟!

ـ كل شىء .. مت .. مت وأخرج ابنتك من بيت رجل ليست على ذمته .

ولم تنتظر فاطمة بل خرجت إلى حيث الرجال جلوس :

ـ أنا أذهب .

وصاح حافظ :

ـ أنت .. أنت يا فاطمة ؟

ـ لابد أن أكون بجانب ابنتى الآن .. إنها لن تحتاج إلى قدر حاجتها إلى الآن .. الآن .

ـ وكيف تذهبين ؟

ـ أذهب .

ـ نحن لا نعرف الطريق .

ـ اسأل عبد الصادق .. أليس صديقك ؟

ـ وهل يرضى أن يدلنا ؟

ـ أنت يا عبد الغنى تعرف الطريق .

ـ أنا يا ست فاطمة ؟

ـ نعم أنت .

ـ أنا لا شأن لى بهذا يا ست فاطمة .. اعملى معروفًا .. أنا لا شأن لى .

ـ خذنى إلى قرب المكان واتركنى .

ـ أنا ياست فاطمة ؟

ـ نعم أنت .. مم تخاف ؟ .. ستقف بعيدًا .. بعيدًا ولن يراك أحد .

وقال حافظ :

ـ وتذهبين وحدك يا فاطمة ؟

ـ نعم أذهب وحدى .. يجب أن أكون بجانب ابنتى . وابحثوا أنتم بعد ذلك فى صحة الزواج أو عدم صحته .. سأظل هناك حتى تصبح زوجة على سنة اللّه ورسوله أو تعود معى .. ولكنى لا أتركها وحدها أبدًا .... هيا يا عبد الغنى .

ـ سأقف بعيدًا ياست فاطمة .

ـ نعم قف بعيدًا .

وقال الشيخ إبراهيم :

ـ وقولى لعتريس إن إبراهيم يقول لك إن العقد باطل .. باطل .

وقال عبد الغنى :

ـ يا عم الشيخ إبراهيم أنت مالك .. هل أنت المفتى .. الرجل لم يسألك .. ثم المحامى .. وهو الرجل المختص قال له العقد باطل فأخذ أمواله .. مالك أنت يا عم الشيخ إبراهيم .

ـ حق اللّه يا عبد الغنى .. حق اللّه ..

ـ لا إله إلا اللّه .

ـ هيا يا عبد الغنى .

ـ هيا يا ست فاطمة .

قال لها عتريس حين رآها :

ـ وأنت ماذا جاء بك ؟

ـ ابنتى .

ـ مالها ؟

ـ ليست زوجتك .

ـ من قال لك هذا ؟

ـ لا شأن لك .

ـ من قال لك هذا ؟

ـ الذى قال قال ، وأنت لا شأن لك .

ـ ومن الذى دلك على المكان ؟

ـ لا شأن لك أيضًا .

ـ إذن .

ـ أنا باقية هنا حتى يقضى اللّه أمرًا .

ـ وماذا يمكن أن يقضى .. زوج وزوجته .

ـ لست زوجًا ، ولا هى زوجتك !

وخرج عتريس ونادى إسماعيل الصفورى :

ـ أريد أن أعرف من الذى زار بيت حافظ اليوم ؟

وقصد إسماعيل إلى عبد الغنى حسون :

ـ من زمان لم نرك يا عبد الغنى .

ـ مشاغل ياعم الشيخ إسماعيل .

ـ وما حال الدنيا ؟

ـ رضا .

ـ ماذا يقول الناس ؟

ـ البلد مشغولة بالزواج هذه الأيام .

ـ هل هى مشغولة به ؟

ـ لا تتكلم فى شىء آخر .

ـ وما رأيهم ؟

ـ آراء مختلفة .

ـ وما رأى حافظ ؟

ـ ألا تعرفه ؟

ـ الرأى الذى أسمعه منك غير الرأى الذى أسمعه من حافظ .

ـ واللّه إن جئت للحق حافظ جاء وليس له رأى خاص ، وإنما هو يسمع ما يقوله الناس ؟

ـ هل زاره أحد ؟

ـ قليل .

ـ مثل من ؟

ـ الشيخ إبراهيم ، الشيخ بسيونى ، هنداوى أفندى .

وقال عتريس :

ـ ليس بين هؤلاء من يقول إن الزواج باطل إلا الشيخ إبراهيم .. أغرق أرضه اليوم يا إسماعيل .. وبعد أن تغرق الأرض اذهب وقل له إننى اكتفيت بهذا فى هذه المرة ، ولكن عقابى فى المرة القادمة سيكون فظيعًا . فخير له أن يسكت .

وقال الشيخ إبراهيم :

ـ أكل ما قدر عليه عتريس هو أن يغرق الأرض .. مثل هذا يسكتنى أنا يا إسماعيل ؟. والله إن انطبقت السماء على الأرض فلن أسكت .. هذا الزواج باطل . وإقامة فؤادة مع عتريس اعتداء على حقوق الله .. ولن نسكت ..

ـ يا عم الشيخ إبراهيم .. إنعام فى القرية تلتقى فى كل يوم على حرام . لماذا سكت عنها ؟

ـ هذه تجارة قديمة الله يعاقب عليها فى الآخرة ، وإنعام هى التى اختارتها .. أما اختطاف فتاة من بين أهلها وتزوير إرادتها وجعل عقد زواج باطل عقدًا صحيحًا .. أما هذا فهو هدم للحياة جميعًا وللدين جميعًا ، والسكوت عليه كمن يرى جيشًا يهدم الدين وهو ساكت .

ـ ياعم الشيخ إبراهيم طول عمرك رجل طيب لم ترفع صوتك ، حتى وإن اعتدى عليك ، فما معنى ثورتك هذه المرة ؟

ـ حق الله .

إنك لم تدافع عن حقوقك ضد المعتدين .

ـ حقوقى أنا حر فيها . أما حق الله فأنا مرغم على الدفاع عنه .

ـ وأهل القرية جميعًا ما لهم لا يفعلون مثلما تفعل ؟

ـ لا يعرفون واجبهم قبل الله .

ـ يا عم الشيخ إبراهيم اعمل معروفًا واسكت .

ـ قل لعتريس : الزواج باطل .. باطل .. باطل .. يغرق الأرض إن شاء ، ويحرق المحصول متى أراد ، ولكن الزواج باطل .

ـ ياعم الشيخ إبراهيم أنا لن أقول شيئًا .. أنا لن أقول شيئًا .

ـ ولكنى أنا سأقول .

ـ لن يبلغه أحد .

ـ سيصل إليه صوتى .

ـ لا يجرؤ أحد أن يقول له .

ـ سيصل إليه صوتى .. وإن أغلق آذانه فسيصل إليه صوتى .

وقال عتريس :

ـ ماذا قال الشيخ إبراهيم ؟

فقال إسماعيل :

ـ لم يقل شيئًا .

وحل يوم الجمعة ، وقصد أهل القرية إلى الجامع فرادى وجماعات ، ودخلوا جميعهم من الباب الصغير الذى يؤدى إلى الميضأة ، وما لبثوا أن ارتدوا إلى صحن الجامع والماء يغمر كل جزء غير مغطى من جسومهم ، كأنهم الزرع ألقى عليه الماء فهو مخضل وفى الجو همهمة هى تسبيح بين الحوقلة والبسملة .. وبعضهم يصلى ركعتين قبل صلاة الجمعة ، وبعضهم راح يحادث البعض فيما لا صلة بينه وبين الجامع والصلاة ، وفى ركن قصى جلس عليوة حسيرًا ذاهلا ، مر به كثير من رجال القرية فحيوه . وجلس بعضهم إلى جانبه يحاول أن يسأله عما حدث له ولكنه يقول فى أسى :

ـ لم يحصل شىء .. كذب ما سمعتم .. لم يحصل شىء .

وينصرف عنه السائلون ذاهلين وقد ازداد يقينهم بصدق ما سمعوه . وكلما مضى الوقت أحس الناس أن روح اللّه تظلهم فى مكانهم هذا ، وأنهم فى حاجة أشد إلى هذه الروح يوغلون فى شعورهم باللّه . ويشحن الجو بلقاء واستقبال بين السماء والأرض ، ويرتفع صوت المقرئ ، ولم يكن جميلا ولكن الناس أحسوا به آتيًا من السماء فتخاشعت نفوسهم واشرأبت .. أحسوا جميعهم أن شيئًا واحدًا يجمعهم لا يدرون ما هو .. أهو شيء من الإيمان .. أم شيء من الترقب ؟ .. لا يدرون .. ولكنهم فى كل الجمع التى صلوها معًا لم يشعروا بهذا الشعور ... كان كل منهم يدخل إلى الجامع فردًا خاليًا بشئون نفسه ، ويصدر عنه فردًا خاليًا بشئون نفسه .. أما اليوم فهم جميعًا يحسون أن شأنًا واحدًا يجمعهم ، فتفكير واحد يخيم عليهم ، وشعور واحد يرين على جمعهم . أصبح كل فرد منهم هو الجمع الذى يزحم الجامع ، وأصبح الجمع كله فردًا واحدًا . لم يقل واحد منهم للآخر شيئًا مما يخالجه ، ولكن هذا الإحساس العجيب من الشعور بالتوحيد كان يجيش فى صدورهم فى نفس الوقت .. كانت عيونهم كلما التقت تعبر عن هذا التآلف الذى جمعهم فجأة . وانتهى المقرئ من قراءته ووقف خطيب الجامع فألقى خطبته من كتاب معه وألقى الأدعية فكانت تهينم فى الجامع كله كلمة آمين متخافتة تتواثب من أركان غير متجمعة ولا هى منسجمة ، حتى إذا قال الإمام : « اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا » تجمع الشتيت ودوت آمين يحيط بها صوت من القلب تعرفه الأذن وتعرفه السماء .

وقبل أن يقول الإمام : أقم الصلاة . وقف الشيخ إبراهيم من أقصى الجامع وصاح :

ـ يا أيها الناس .. الزواج باطل . ولابد أن ترجع فؤادة إلى أهلها .

ومن أركان متفرقة من الجامع قالت ألسنة :

ـ ياعم الشيخ إبراهيم ونحن مالنا ؟

ـ ياعم الشيخ إبراهيم اعمل معروفًا .

ـ أهذا وقته ؟

ونظر الشيخ إبراهيم إلى المتكلمين ثم قال :

ـ أنا أعرفكم جميعًا .. أنتم من العصابة .. نعم هذا وقته . إنما شرعت خطبة الجمعة للبحث فى شئون المسلمين .. وهذا الذى يحدث يهم الجميع .. إنه حق الله .. والزواج باطل .. لقد أغرقوا أرضى حتى لا أقول هذا ، ولكن الزواج باطل .. باطل .. باطل .. أقم الصلاة إن شئت يا عم الشيخ عبد التواب .

وقال الشيخ عبد التواب فى عظمة للمؤذن :

ـ أقم الصلاة .

(١٧)

قال عتريس :

ـ اقتلوا محمود بن الشيخ إبراهيم .

ونظر إسماعيل إلى عثمان ، ثم نظر إلى عبد المعطى ، ثم نظروا إلى الجاسوس الذى حمل كلام الشيخ إبراهيم إلى عتريس ، ثم نظروا جميعهم إلى عتريس ولم يحفل عتريس بنظراتهم ، ولم يعن أن يعيد أمره ، فإن إصداره مرة واحدة يكفى .

ودخل عتريس إلى حجرته مغيظًا .. وكانت فؤادة جالسة إلى جانب أمها .. الأم تقرأ القرآن وفؤادة تسمع ، وقد وضعت على فمها تلك الابتسامة التى لازمتها منذ دخلت هذا البيت .. ابتسامة عجيبة . كان ينظر إليها عتريس فيجن جنونًا .. جميلة هى الابتسامة حتى لتجعله أكثر رغبة فى فؤادة ، فكأنها ابتسامة فيها من الاستدعاء معنى ، ولكنها مع ذلك واضحة

السخرية ، وهى أيضًا ابتسامة يشيع فيها الاطمئنان الهادئ الواثق ، وكأن صاحبتها تعيش فى بيتها الطبيعى ، وبين أهلها ، وخاصة عشيرتها . وهى إلى هذا جميعه ابتسامة ليس فيها أى افتعال ، ولكن فيها تحديًا واضحًا .. ويعجب كيف يمكن لفتاة أن تجعل التحدى واضحًا فى ابتسامتها دون أن يكون فى هذا التحدى افتعال .. إنما هو تحد طبيعى وصامت وصادق وواثق .. ويجن عتريس .

ـ صدق الله العظيم .

ونظرت إليه فاطمة !

ـ وما شأنك أنت بالله ؟

ـ الظاهر أن موقف ابنتك جعلك جريئة .

ـ أنا لا أخشى إلا الله .

ـ لم تقولى هذا وأنا أتزوج ابنتك .

ـ ليس لى أنا أن أقول .. أبوها هو الذى فعل ما فعل .

ـ فلو كان الأمر بيدك لقلت لا .

ـ ألا ترى أنى أقولها الآن .

ـ لأن ابنتك جرأتك .. رأيتها تقول لا ولم أصنع لها شيئًا فحسبت الأمر سهلا .

ـ أنا متوكلة على الله .

ـ أما آن الأوان ياست فؤادة ؟

ـ أتعرف أنه لا يجوز لك أن توجه الحديث إلى أمى أبدًا .. إننى إذا وافقت على الزواج بك فستذهب أمى من فورها إلى بيتها . فحديثك معها عبث لا معنى له .

ـ ومتى توافقين ؟

- أنا لن أوافق أبدًا .

- لقد عاقبت فى القرية كل من تجرأ فقال إن الزواج باطل .

- أيجعل هذا الزواج صحيحًا ؟

- كيف يجرؤون .. كيف يجرؤون ؟

- إنهم لا يقولون رأيًا .. إنهم يعلنون حقيقة .

- ولكن يجب ألا يجرأوا .

- لماذا لم تعاقب أبا حنيفة ؟

- لأنه مات .

- وما ذنب الأحياء .

- إنهم أحياء .

- فعاقبنى أنا .

- أتظنين أنى لا أعاقبك ؟ .. لا تخافى . سيأتى اليوم .

وهز عصا غليظة يحملها فى يده . وعلا صوت فاطمة .

- إنهم يكيدون كيدًا وأكيد كيدًا ، فمهل الكافرين أمهلهم رويدًا .

وقال عتريس وهو يضرب بعصاه راحة يده ضربات هينة :

- لابد أن يأتى ... سيأتى اليوم .. لابد أن يأتى .

(١٨)

فرغ طه ومحمود من عملهما فى الحقل وتوجها إلى البيت ، ولم يلتفتا إلى رجلين يتبعانهما . وحين بلغا البيت قال محمود :

- أنا خارج .

- يا محمود لو عرف أبوك قتلك .

- ومن يخبره ؟

- هذه الأشياء لا تختفى .

ـ يا أخى أنا حر .
ـ أنا أخاف عليك من أبيك .
ـ إن كان لا يعجبه أتركه .. أنا بذراعى آكل الشهد .
ـ أخاف على أبيك إن سمع .
ـ يا أخى أنا رجل .
ـ ولكن ألا تخاف على أبيك ؟
ـ يكون مخطئًا لو غضب .
ـ أنت تعرفه .
ـ يكون مخطئًا لو غضب .
ـ يا محمود كفى .
ـ ماذا .. هل ستعمل لى شيخًا أنت الآخر ؟
ـ أرجوك .. طيب لا تذهب الليلة فقط .
ـ إن لم أذهب الليلة فأذهب غدًا .
ـ ابق هذه الليلة فقط .. أرجوك .
ـ لا شأن لك بى .
ـ أرجوك .
ـ دعنى .
وعند بيت إنعام قال أحد الرجلين للآخر .
ـ مرة أخرى ننتظر هنا .
ـ نعم ولكن شتان بين المرتين . كنا فى المرة الفائتة ننتظر لنحرس أما الليلة ..
ـ ولكنه مكان ثقيل للانتظار على كل حال .
ـ لعل انتظارنا المرة الفائتة كان أثقل .
ـ على كل حال هو مكان ثقيل للانتظار .

ـ وهذا العمل الذى نقوم به .. أليس ثقيلا ؟

ـ أتراه كذلك ؟

ـ ليس أنا الذى يراه وحدى .

ـ فمن أيضًا ؟

ـ كثيرون منا .

ـ كثيرون ؟

ـ كثيرون .

ـ فما الذى يجعلنا ننتظر ؟

ـ حتى يصبح الرأى رأى الجميع .

وقال محمود :

ـ كيف الحال يا إنعام ؟

ـ نحمده يا أبو حنفى .

ـ يا ترى فكرت فيما قلته لك ؟

ـ لا .. أنا لا أفكر فيه أبدًا .

ـ لماذا ؟ .. أنا أحبك يا إنعام .

ـ ورشدى كان يحبنى .

ـ ولكننى شىء آخر .

ـ لماذا يظن كل إنسان أنه شىء آخر .

ـ أحس بذلك .

ـ ولماذا تحس بذلك ؟

ـ أحس أنك تحبيننى .

ـ ما الذى جعلك تحس بهذا ؟

ـ أشعر بهذا .

- أعرفت كيف ألقى غيرك حتى تقارن .

- لا تذكرينى بالآخرين .

- أنسيتهم ؟

- أحب أن أنساهم .

- إذا تزوجنا فستنسى كل شيء ، ولا تذكر إلا الآخرين .

- أبدًا .

- يتهيأ لك .

- جربى .

- لا أجرب أبدًا .

- جربى .

- اسمع يا محمود .. أنت أول واحد يعرض علىّ هذا العرض ، ولهذا فأنا لا أريد أن أغشك .

- لا شأن لك .. اقبلى ولا شأن لك .

- أخاف من نفسى يا محمود .

- اقبلى ولا شأن لك .

- سأفكر .

- هذا كل ما أرجوه ... فكرى .

- لا أضمن نفسى .

- فكرى .. واعلمى أنى أحبك .. وفكرى .

- ما الذى تريده بالزواج منى ؟

- ألا تعرفين ؟

- الحقيقة لا ...

- أريدك لى وحدى .

ــ وكيف تعرف أنى سأكون لك وحدك ؟

ــ لا تقولى هذا .

ــ أنت تخاف من مجرد الفكرة . فكيف إذا تزوجنا وفكرت فيما كان أو عيرك واحد من القرية .

ــ لا نقيم هنا .

ــ أيمحو هذا الماضى ؟

ــ يمحوه .

ــ سنحمله معنا أينما ذهبنا .. إنه فى داخلنا يا محمود .. لا نستطيع أن نتركه فى أى مكان .

ــ نقتل هذا الماضى .

ــ إنه لا يموت .. حتى إذا متنا نحن فإنه لا يموت .

ــ ألم تقولى إنك ستفكرين .

ــ ألست أفكر الآن ؟

ــ فكرى وحدك .

ــ إذا كانت هذه هى أفكارى وأنت معى . فكيف إذا تركتنى لها وحدى .

ــ ألا أمل إذن ؟

ــ لا أدرى .

ــ أنا قادم غدًا .. وكفانى : « لا أدرى » هذه أملا أنام به ليلتى .. هل آتى فى غدى ؟

ــ أنت تعرف أن باب بيتى لا يقفل .

ــ لا تقولى هذا .

ــ لا تخف أنت من الحقيقة .

- لا تقوليها .

- لا يغير قولها شيئًا .

- فقط لا تقوليها .. أنا ذاهب وقادم في غد ؟

- أهلا بك .

وخرج وانفجرت فى فضاء القرية طلقة نارية وأعقبها صمت .

* * *

خرج الشيخ إبراهيم من بيته ، وكلما لقى أحدًا قال له :

- قولوا له الزواج باطل .. مهما يقتل ابنى فالزواج باطل .

وما يسمعه أحد إلا أشاح عنه فى خوف مذعور وأسى عميق ، ولقيه عبد الغنى حسون فأمسك به :

- قل له الزواج باطل .. قتل ابنى لا يصحح العقد .. العقد باطل .. باطل .. قل له .. قله لمن يبلغه .

- يا عم الشيخ إبراهيم أنا لن أقول شيئًا .. لن أقول شيئًا .

- لقد عشت طول عمرك تقول .. لماذا لا تريد أن تقول هذا .. إنها كلمة حق ألا تقول حقا ؟

- ياعم الشيخ إبراهيم . أما كفاك ما جرى ؟

- ما شأن هذا بحق اللّه ؟

- ياعم الشيخ إبراهيم لماذا تعرض نفسك لهذا جميعه ؟

- الزواج باطل .

- ولكنك وحدك تعرض نفسك لهذا الدمار .

- حق اللّه أحب إلىّ من حياة ولدى .

- كفاك ياعم الشيخ إبراهيم .. كفاك .

- إذن فلن تقول له .

ـ لن أقول شيئًا .

ـ ولن تجعلنى ألقى من يقول له .

ـ ولن أفعل هذا أيضا .

ـ إذن فسأقول أنا .

ومضى الشيخ إبراهيم إلى دكان عبد الملاك فاشترى إصبعًا من الطباشير ومضى إلى حائط الجامع البنى اللون الأملس وكتب عليه فى حروف ظاهرة قوية « زواج عتريس من فؤادة .. باطل .. باطل .. »

وتجمع حوله ـ وهو يكتب ـ بعض نفر أخذ عددهم يزداد وراحت الوجمة الآخذة تتجمد على وجوههم .

وحين فرغ من الكتابة وقع باسمه إبراهيم علام ، ومضى يهيئ ولده ليشيعه لمثواه الأخير . ولكن الباحة التى أمام الجامع مالبثت أن امتلأت بالناس وكانوا صامتين ، ولم يبرحوا الباحة إلا حين مرت جنازة محمود ، ووجدوا أنفسهم يسيرون فيها دون وعى .

* * *

حين علم عتريس بما كتبه الشيخ إبراهيم دخل إلى حجرة فؤادة ثائرًا :

ـ أليس لها آخر ؟

وقبل أن تجيب أهوى على رأسها بعصاه الغليظة فانهارت فؤادة وهى تقول :

ـ ولكنى لا أموت .

وارتمت أمها بجانبها تنادى اسمها فى ثورة ، وهم عتريس أن يبرح الغرفة ، ولكنه وجد الطريق مسدودًا أمامه . كانت عيون الرجال تغلقه فلا سبيل له .. ونظر إليهم مذهولا أول الأمر ، ثم حين تبين ما فى عيونهم ما لبث أن غشيته غاشية من الخوف المذعور الراجف ، ولم يقل شيئًا ، ولكن أحد الرجال قال فى حزم :

ـ فؤادة تذهب إلى بيت أبيها .

واستجمع عتريس أشلاء نفسه ليقول :

ـ أتجرؤ ؟

ولكن الصوت عاد يقول له فى حزم ثابت هادئ :

ـ فؤادة تذهب إلى بيت أبيها .

ـ سأقتلكم جميعًا .

وجاءه الصوت مرة أخرى :

ـ إننا نحن الذين نقتل .. فؤادة تذهب إلى بيت أبيها .

وحملت فاطمة فؤادة بين ذراعيها وانفسح الطريق أمامها وخرجت ونكس عتريس رأسه فى استسلام . وحين رفع بصره لينظر الطريق الذى سارت فيه فاطمة بفؤادة وجد الطريق وقد أغلقته العيون مرة أخرى .

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٩٤٦١

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 11 - 1421 - 2

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

الثمن ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه